الباب الرابع
أدب أبي الطيب

الفصل الأول
مكانته في الأدب

١

كان شعر أبي الطيب، في بعض معانيه ولغته وأسلوبه، يمتاز عن شعر معاصريه. وكان أبو الطيب في أنفته وكبريائه وثورته وتحدثه بالسؤدد المجد فذًّا في الشعراء.

فهذ وذاك نبّها الناس إليه منذ حداثته. فما زال ذكره يَنبُه حتى فاق شعراء الشام. ثم اتصل بسيف الدولة فاتسع المجال لبيانه، وواتت الحالُ كبرياءه. فعلا قدره وسار شعره حتى كسف شعراء عصره جميعًا، القريبين من سيف الدولة، والبعيدين.

وكان الشاعر معجبًا بنفسه مفتونًا بشعره منذ نشأ. يقول في قصيدة الحسين بن علي الهمذاني:

يرومون شأوى في الكلام وإنما ... يحاكي الفتى، فيما خلا المنطق، القردُ
فهم في جموع لا يراها ابنُ دأية ... وهم في ضجيج لا يحسّ به الخُلد
ومني استفاد الناس كلّ عجيبة ... فجازُوا بترك الذم إن لم يكن حمد

وفي قصيدة ابن طُغُج:

إذا صُلت لم أترك مقالاً لصائل وإن قلتُ لم أترك مقالاً لعالم

وفي قصيدة طاهر العلوي:

حملتُ إليه من لساني حديقة سقاها الحِجي سقى الرياضَ السحائب

ولما نبه ذكره عند بني حمدان اغتبط بإدراك بعض آماله، وتحدث عن بُعد صيته وسير شعره فقال:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم
أنام ملءَ جفوني عن شواردها ويَسهرُ القومُ جَرّاها ويختصم

***

وعندي لك الشرّد السائرات لا يختصِصن من الأرض دارا
قواف إذا سرن عن مِقْولي وثبنَ الجبال وخُضنَ البحارا
ولي فيك ما لم يقل قائل وما لم يسر قمر حيث سارا

***

وما أنا إلا سمهريّ حملتَه فزيّن معروضًا وراع مسدَّدا
وما الدهر إلاّ من رواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً
وسار به من لا يسير مشمّراً وغنّى به من لا يغنّي مغرّدا

٢

وكان من نباهته أن تطلع الشعراء إلى شعره منذ صباه. وقد ادّعى بعضهم إحدى قصائده:

في النسخة (٥٣٠): «حدثني أبو الحسن بن سعيد راوية المتنبي بحلب سنة أربع وخمسين، وقد تناشدنا قصيدته الحائية التي أولها:

جلَلاً كما بي فليكُ التبريح أغِذاءُ ذا الرشأ الأغنّ الشيحُ ؟

أن أبا الطيب حدَّثه أنه في بعض زَوْراته لآل الفصيص كان عند رئيسهم فأنشده شاعر قدم عليه قصيدته الحائية التي قدّمنا ذكرها إلى أن أتى على آخرها. فأخذ أبو الطيب الدواة وكتب لوقته قطعه لم يُجز أن تروى عنه وقد كتبناها في ديوانه هذا». وقد ألحقت القطعة بآخر النسخة. وأولها:

لمَ لا يغاث الشعر وهو يصيح ويُرى منارُ الحق وهو يلوح
يا عصبة مخلوقة من ظلمة ضموا جوانبكم فإني يوح [1]

وهذه من قصائد الصبا.

وقد حكى أبو الحسين محمد بن أحمد المغربي راوية أبي الطيب في كتاب الانتصار المنبى عن فضائل المتنبي أن شاعراً عارض إحدى قصائد أبي الطيب واستشهد بأبي سعيد السيرافي على أن قصيدته أبلغ، وأخذ خطه بذلك. فانظر كيف كبرت على الشاعر معارضة أبي الطيب حتى استشهد بالسيرافي. وأنقل هنا للتفكه قول المغربي في هذا: «وأما إعطاء أبي سعيد خطه فيوشك أن يكون من جنب ما حدثني به المعروف بابن الخزاز الوراق ببغداد، وأبو بكر القنطري، وأبو الحسين بن الخراساني، وهما وراقان أيضاً من جِلة أهل هذه الصنعة- أن أبا سعيد إذا أراد بيع

(١) يوح: الشمس.

كتاب استكتبه بعض تلامذته، حرصًا على النفع منه، ونظراً في دق المعيشة، كتب في آخره إن لم ينظر في حرف منه: قال الحسن بن عبد الله: «قد قرئ هذا الكتاب عليّ وصح» ليشتري بأكثر من ثمن مثله»[١].

ولست أصدّق هذه الرواية عن أبي سعيد ولكن ساق إليها الحديث.

وحسبنا دليلاً على منزلة شاعرنا أن شاعراً أديباً كابن دينار الذي رويت عنه كتب الزّجاج وثعلب وابن الأعرابي وغيرهم يمدحه بقصيدة أولها:

ربَّ القريض غليك الحَل والرحَل ضاقت إلى العلم إلا نحوَك السبل
تضاءل الشعراء اليوم عند فتًى صِعاب كل قريض عنده ذُلُل[٢]

وقد تخلل شعره الجماهير فحفظوه وتمثلوا به. أسلفت قصة الهاشمي الذي كتب وهو بمصر إلى امرأته بحران متمثلا بمطلع القصيدة:

سهرتُ بعد رحيلي وحشةً لكم ثم استمرّ مَريري وارعَوي الوسَن

وقد حدث هذا الهاشمي أبا الطيب بالقصة وهو في مصر. فالقصيدة التي قالها أبو الطيب في مصر ٣٤٨ روتها نساء حرّان قبل خروجه من مصر[٣].

(١) ياقوت: السيرافي.

(٢) ياقوت ج ٥، ص ٣٧٨.

(٣) انظر ص ١٣١.

٣

وكان من إحسانه وتحليقه فوق شعراء زمانه أن أعجب به جماعة، وحسدته أخرى. وكان من شذوذه وابتداعه في بعض المعاني والألفاظ أن كرهه قوم، ووجد فيه آخرون مجالاً للشرح والجدَل.

فالشعراء واللغويون عند سيف الدولة أخذوا عليه مآخذ. والوزير المهلبي أغرى به شعراءَ بغداد، وحرّض عليه الحاتمي فناظره أو ادّعى مناظرته ثم كتب كتابه «المُوضِحة في مساوئ المتنبي». وابن العميد انتقد بعض شعره وكأنه أراد أن يعلّمه أنه على سمو قدره، لا يكبر على نقد ابن العميد. وسخط عليه الصاحب إذ دعاه إليه فاستكبر كما يقول الثعالبي. فكتب رسالته «الكشف عن مساوئ المتنبي».

وكان الصاحب عارفًا بإحسان أبي الطيب على طعنه فيه. وقد رأيت رسالة اختار فيها الصاحب أبياتًا كثيرة من شعر الشاعر وقدّمها لفخر الدولة بن بويه. وكذلك ناقض شاعرنا أبو إسحاق الفارسي [1].

فقد صار الشاعر مدار نقد وموضوع تأليف وهو حيّ.

٤

وشرح ابن جنى ديوانه وكتب كتابًا آخر في تفسير معاني الديوان فتصدى للردّ عليه عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهاني وابن فُورّجة وأبو

(١) ياقوت: إبراهيم بن علي الفارسي.

حيان التوحيدي. ألف الأول «إيضاح المشكل من شعر المتنبي». وألف ابن فورّجه كتابين «الفتح على أبي الفتح» و «التجني على ابن جنى»[(١)] وألف أبو حيان «الرد على ابن جنى في شعر المتنبي»[(٢)].

وألف الشريف المرتضى من بعدُ كتابًا سماه تتبع أبيات المعاني للمتنبي التي تكلم عليها ابن جني.

وكتب بعض الأدباء يزعم أن شعر أبي الطيب مسروق من أبي تمام والبحتري، فكتب أبو الحسين محمد بن أحمد المغربي راوية أبي الطيب كتاب «الانتصار المنبي عن فضائل المتنبي» وجاء القاضي المنصف علي بن عبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة اثنين وتسعين وثلاثمائة هـ، يتوسط فكتب كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه، فذاع الكتاب أو كما قال ياقوت: سار مسير الرياح، وطار في البلاد بغير جناح. وأقبل عليه المتأدبون حتى قال بعض أهل نيسابور:

أيا قاضيًا قد دنت كُتْبه   وإن أصبحت داره شاحطه
كتاب الوساطة في حسنه   لعقد معاليك كالواسطة

وكان مع هذا الجدل ذيوع شعره، وإكباب الناس على قراءته ودرسه.

ومن أمثلة هذا أنه في سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة وقعت في نيسابور مناظرة بين بديع الزمان والخوارزمي فاقترح عليهما رئيس المجلس أن

---

(١) ياقوت: ابن فورجة (بتشديد الراء)، وأبو حيان.

(٢) مرجع سبق ذكره.

ينسجا على منوال المتنبي في قوله: أرق على أرق ومثلي يأرق. ثم قال لهما قولا على منوال المتنبي في قوله: أهلا بدار سباكَ أغيدها. وهاتان القصيدتان من قول الشاعر في صباه. فكيف بقصائد سيف الدولة وما بعدها؟!

٥

وازداد ذكر الشاعر نباهة على مرّ الزمان. يقول الثعالبي (المتوفى سنة تسع وعشرين وأربعمائة هـ) في كتاب اليتيمة:

«فليس اليوم مجالس الدرس أعمر بشعر أبي الطيب من مجالس الأنس، ولا أقلام كتاب الرسائل أجرى به من ألسن الخطباء في المحافل، ولا لحون المغنين والفوّالين أشغل به من كتب المؤلفين والمصنفين. وقد ألفت الكتب في تفسيره وحلّ مشكلة وعويصة، وكثرت الدفاتر على ذكر جيده ورديئه. وتكلم الأفاضل في الوساطة بينه وبين خصومه، والإفصاح عن أبكار كلامه ورعونه. وتفرّقوا فرقًا في مدحه والقدح فيه. والنَّضح عنه والتعصب له وعليه».

وكتب الثعالبي باباً مطولاً جداً قال فيه: «ويتميز هذا الباب به عن سائر أبواب الكتاب كتميزه عن أصحابها بعلوّ الشأن في شعر الزمان، والقبول التام بين الخاص والعام».

وفي القرن الخامس شرح أبو العلاء المعري المتوفى سنة تسع وأربعين وأربعمائة الديوان وسمي شرحه معجز أحمد.

وفي سنة اثنتين وستين وأربعمائة أتم على بن أحمد الواحدي (المتوفى سنة سبع وستين وأربعمائة) شرح الديوان وقال في خاتمة الشرح: «وإنما دعاني إلى تصنيف هذا الكتاب- مع خمول الأدب وانقراض زمانه- اجتماع أهل العصر قاطبة على هذا الديوان وشغفهم بحفظه وروايته والوقوف على معانيه، وانقطاعهم عن جميع أشعار العرب جاهليها وإسلاميها إلى هذا الشعر، واقتصارهم عليه في تمثلهم ومحاضراتهم وخطبهم ومخاطبهم حتى كأن الأشعار كلها فقدت ... الخ».

ثم توالى الشراح: التبريزي والعكبري وغيرهما إلى يومنا هذا، وليس هذا مقام تعداد شروح الديوان وقد تجاوزت الأربعين.

وأختم الكلام بإثبات قصة تمثل الحقيقة، وإن لم تكن حقًا. روى صاحب الصبح: «أن رجلاً من مدينة السلام كان يكره أبا الطيب المتنبي فآلى على نفسه ألا يسكن بمدينة يذكر بها أبو الطيب وينشد كلامه. فهاجر من مدينة السلام وكان كلما وصل بلداً سمع بها ذكره يرحل عنها حتى وصل إلى أقصى بلاد الترك فسأل أهلها عن أبي الطيب فلم يعرفوه فتوطنها. فلما كان يوم الجمعة ذهب إلى صلاتها بالجامع فسمع الخطيب ينشد بعد ذكر أسماء الله الحسنى:

أساميًا لم تزده معرفة ... وإنما لذّةً ذكرناها[(١)]

فعاد إلى دار السلام»[(٢)].

---

(١) البيت لأبي الطيب في مدح عضد الدولة.

(٢) الصبح ص ٩٠.

٦

وقد سار ذكر أبي الطيب في المغرب كما سار في المشرق، فأبو جعفر القزاز (المتوفى سنة اثنتي عشرة وأربعمائة وقد قارب التسعين) كتب عن الشاعر كتابين:

الأول: «أبيات معان في شعر المتنبي». والثاني: «ما أخذ عن المتنبي من اللحن والغلط»[١]. وابن رشيق (المتوفى سنة ثلاث وستين وأربعمائة) ذكره في كتاب العمدة مرات. وسماه خاتم الشعراء وقال: «ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس».

وقد عرف ديوان الشاعر في الأندلس في حياته. نقله ابن الأشح (المتوفى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة) وابن العريف (ف سنة ٣٩٠)[٢]. وشرح الأفليلي (ف ٤٤١) الديوان. ومن كتابه نسخة في دار الكتب المصرية. وكتب ابن سيدة (ف ٤٥٨) «المشكل من شعر المتنبي» وهو في دار الكتب أيضًا.

وأما شيوع شعره في أندية الأندلس منذ القرن الرابع فهنا قصتان: روى ابن خلكان أن المعتمد بن عباد أنشد يومًا في مجلسه بيت المتنبي:

إذا ظفرت منك العيون بنظرة أثاب بها مُعيي المطيّ ورازمه

(١) ياقوت: القزاز.

(٢) مقال بلاشير في مجلة المغرب الجديد.

وجعل يردّده استحسانًا له، وفي مجلسه أبو محمد عبد الجليل بن وهبون الأندلسي فأنشد ارتجالاً:

لئن جاد شعر ابن الحسين فإنما تجيد العطايا. واللُّهى تفتح اللَّهى
تنبأ عُجبًا بالقريض ولو درى بأنك تروى شعره لتألّها [1]

وفي الصبح المنبي [2] عن ذخيرة ابن بسام: «أن أبا عبد الله بن شرف قال يومًا للمأمون بن ذي النون أيام خدمته إياه، واستشفافه صُبابة عمره في ذَراه، وقد أجروا ذكر أبي الطيب، فذهبوا في وصفه كل مذهب: إن رأى المأمون- لا فارق العزَّة والعلاء- أن يشير إلى أي قصيدة شاء من شعر أبي الطيب حتى أعارضه بقصيدة تُنسى اسمه وتُعفى رسمه. فتثاقل ابن ذي النون عن جوابه، علمًا بضيق جنابه، وإشفاقًا من فضيحته وانتشابه. وألحّ أبو عبد الله حتى أحرج ابن ذي النون وأغراه فقال له دونك قوله:

لعينيكِ ما يلقى الفؤاد وما لقى وللحب ما لم يبق مني وما بقى

فخلا بها ابن شرف أيامًا فوجد مركبها وعراً، ومَريرتها شَذراً، ولكنه أبلى عذراً، وأرهق نفسه من أمرها عسراً. فما قام ولا قعد. وسأل ابن ذي النون بعد أي شيء أقصده إلى تلك القصيدة؟ فقال: لأن أبا الطيب يقول فيها:

بلغت بسيف الدولة النور رتبة أنرتُ بها ما بين غرب ومشرق

---

(١) ابن خلكان: المتنبي.

(٢) ص ١٩٠.

إذا شـاء أن يلهـو بلحيـة أحمـق أراه غبـاري ثـم قـال لـه الحـقِ»

وروى في الصبح عن ابن بسام أن أبا علي بن رشيق حدّث نفسه بمعارضة أبي الطيب في قصيدته:

أمـن ازديـارَك فـي الـدجى الرقبـاء إذ حيـث كنـت مـن الظـلام ضـياء

فلم يستطع.

٧

وفي المغرب الأقصى شاع ذكر أبي الطيب كذلك. وأعجب الناس بشعره حتى كبار رجال الدين كالمهدي محمد بن تومرت.

واختصر شرح ابن جنى في القرن السادس عيسى بن عبد العزيز الجزولي (المتوفى سنة ٦٠١)، وألف عبد العزيز القشتالي (المتوفى سنة ١٠٣١) كتاباً سماه: مقدمة لترتيب ديوان المتنبي. ويقال إن الشيخ عبد القادر الفاسي (المتوفى سنة ١٠٩٠) كان يحفظ ديوان أبي الطيب كله، وكذلك يقال عن أبي علي اليوسي (المتوفى سنة ١١٠٢)[1].

٨

ولا تنس كلَف النحاة وعلماء البلاغة بشعر أبي الطيب. يجد الأولون في مشكله وعويصه مثاراً للجدل كما فعل ابن هشام في كتاب المغني. ويجد الآخرون في محاسنه ومساوئه أمثلتهم في البلاغة والتعقيد كما فعل

(١) مقال بلاشير عن مجلة المغرب الجديد.

عبد القاهر الجرجاني وأبو يعقوب السكاكي ومن أخذ عنهما من مؤلفي البلاغة.

٩

ذلكم أبو الطيب، الذي ملأ الدنيا وشغل الناس كما قال ابن رشيق، قد أورث الأدب العربي ثروة بشعره ولا سيما حماسته وأمثاله وحِكَمه. وأورثه ثروة بما ثار حوله من نقد الأدباء وجدالهم وبما كُتب على ديوانه من شروح تجاوزت الأربعين.

لقد أدرك الشاعر الكبير في الأدب، المجد الذي فاته في السياسة. فإن يكن المجد كما قال:

وتركك في الدنيا دويًّا كأنما تداول سَمعَ المرء أنملُهُ العشر

فما زالت الدنيا مدوّية باسمه، والآفاق مردّدة ذكره، وما زال حتى اليوم مدار قيل وقال، ومُثار مراء وجدال. ولم يزده مرّ الزمان إلاّ نباهة، ولا قدمُ العهد إلاّ حداثة. وها هي ذي البلاد العربية قد احتفلت أخيراً بذكره بعد ألف عام، من فاس إلى مدينة السلام.

الفصل الثاني

آراء النقاد فيه

أعرض في هذا الفصل طائفة من آراء الأدباء القدماء في أبي الطيب منذ تكلم فيه النقّاد إلى القرن السابع.

وإنما عُنيت بآراء النقاد القدماء لأنهم أقدر على نقد الشاعر، وأبصر بمواقع شعره في النفوس، ومكانته من أدب عصره.

ذلكم بأن ألفاظ اللغة، على إطراد استعمالها، ووضوح مدلولاتها، تتضمن إلى معانيها البيّنة، دقائق لا تستطيع تفسيرها معاجمُ اللغة، ومرامي تختلف باختلاف الزمان والمكان. فقد يدرك معاصر أبي الطيب متانة في عبارة أو ركاكة لا تظهر لنا، ويرى في جُملةٍ سوء أدب لا نراه.

ومن أجل هذا كانت اللطائف لا تقع عند الناس مواقع واحدة، فربَّ كلمة تذهب بجماعة مذاهب في الضحك والعجَب، ويمرّ بها آخرون لا يرون فيها ما يضحك. لأن في اللَّطائف، إلى المعنى المشترك بين الجماعات، دقائق تختلف في إدراكها البيئات.

ثم معرفة الناس الوقائع التي قيل فيها الشعر تجعل للعارف ميزة على غيره في تقدير المعاني ووزن الكلام، والحكم على القائل. فالقصيدة التي تنظم اليوم في واقعة تقع في مصر تتضمن من الدقائق ما لا يقدره غير

المصريين وإن اشترك العرب والمتأدبون بالأدب العربي جميعًا في فهم معانيها.

وكذلك القصيدة التي أنشئت في القرن الرابع هي أقرب إلى أهل القرن الرابع. وهلم جرا.

وهكذا تختلف البيئة والعرف والأدب باختلاف الزمان والمكان.

ثم في عرض آراء النقاد من السلفِ فائدتان أخريان: الاستعانة بنظرهم وكانوا أكثر منا فراغًا للأدب، واختصاصًا به. والثانية أن معرفة آراء النقاد في شاعر مّا تدخل في تاريخ أدب هذا الشاعر. فلا يسع كاتب أن يتركها دون إخلال بتاريخ من يكتب عنه قليل أو كثير.

وترتيب الآراء هنا على ترتيب التاريخ:

١- قال أبو الفتح بن جنى: وهو ممن صحب المتنبي. وقد قرأ عليه ديوانه ثم كتب عليه شرحًا:

«وإن كان في بعض الفاظه تعسّف عن القصد في صناعة الإعراب، من التمسك بأهداب شاذ أو حمل على نادر، فعن غير جهل كان منه، ولا قصورٍ عن اختيار الوجه الأعرف له. ومن هنا تشبث قوم لا دُربةَ لهم بعلم العربية بأشياء من ظاهر لفظه. إذ لم يكن لهم خبرة بدخلة أمره. وحقًّا أقول لقد شاهدته على خلق قلما تكامل إلا لعالم موفق».

وأما اختراعه للمعاني وتغلغله فيها، واستيفاؤه إياها، فما لا يدفعه إلا ضد، ولا يستحسن معاندته إلا ند، وما أحسبني رأيت أحدا (غضّ من) هذا الرجل وقتًا من الزمان إلا وشاهدته بعد ذلك قد رجع عنه وعاد إلى تفضيله ... وما لهذا الرجل الفاضل عيب عند هؤلاء السقطة الجُهال وذوي النذالة والسفال، إلا أنه متأخر محدَث! وهل هذا لو عقلوا إلا فضيلةٌ له ومنْبهة عليه؟! لأنه جاء في زمان يعقم الخواطر ويصدئ الأذهان، فلم يزل فيه وحده بلا مُضاه يساميه، ولا نظير يعاليه. فكان كالقارح الجواد يتمطر في المهامه الشداد، لا يواضح إلا نفسه، ولا يتوجّس فيها إلا جرسه».

٢- وقال الصاحب بن عباد (المتوفى سنة ٣٨٥) في مقدمة رسالته: الكشف عن مساوئ شعر المتنبي:

«وكنت ذاكرت بعض من يتوسم بالأدب، الأشعار وقائليها والموجودين فيها، فسألني عن المتنبي فقلت: إنه بعيد المرمى في شعره كثير الإصابة في نظمه، إلا أنه ربما يأتي بالفقرة الغرّاء، مشفوعة بالكلمة العوراء. فرأيته قد هاج وانزعج، وحَمِي وتأجج، وادّعى أن شعره مستمر النظام متناسب الأقسام. ولم يَرْض حتى تحدّاني فقال: إن كان الأمر كما زعمت فأثبت في ورقة ما تنكره، وقيّد بالخط ما تذكره. لتتصفحه العيون وتسبكه العقول. ففعلت وإن لم يكن تطلّب العثرات من شيمتي، ولا تتبع الزلات من طريقتي. وقد قيل: أي عالم لا يهفو، وأي صارم لا ينبو، وأي جواد لا يكبو؟».

ثم عدّ الصاحب عيوبًا أخذها على الشاعر واستشهد بأبيات. وترى أن الصاحب في المقدمة لم يطعن في مقدرة الشاعر، ولا حطّ من قدره، ولا أخره عن مكانه، بل أراد أن يثبت أن للرجل هفوات. وليس يعنينا أن يكون حقًّا أو باطلاً ما رواه الثعالبي من أن الصاحب دعا أبا الطيب إلى مدحه فاستكبر فانتقم منه بالطعن فيه. فقد حاول الصاحب أن يأتي بالبينة على دعواه فنصرته حينًا وخذلته حينًا. وعمدتنا هذه البينة لا نية الناقد.

وهذا الصاحب نفسه جمع لأحد الأمراء من بني بويه أبياتًا من عيون شعر أبي الطيب وتداولها الناس في رسالة باسم الصاحب، كما تقدم.

٣- وقال أبو القاسم الأصفهاني في كتابه إيضاح المشكل من شعر المتنبي: [١]

«وأما الحكم عليه وعلى شعره فهو سريع الهجوم على المعاني. ونعتُ الخيل والحرب من خصائصه. وما كان يُرادّ طبعه في شيء مما يسمح به. يقبل الساقط الرديء كما يقبل النادر البدْع. وفي متن شعره وهى وفي ألفاظه تعقيد وتعويض».

وخلاصة هذا الرأي أنه كان قليل التثبت، فأحسن وأساء ولم يسلم من الضعف والتعقيد. وذلك قريب من رأى الصاحب.

---

(١) الخزانة ج ١ ص ٣٨٩.

٤- وقال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (المتوفى سنة ٣٩٢) في كتاب الوساطة:

«وما زلت أرى أهل الأدب منذ ألْحَفْتني الرغبة بجملتهم، ووصَلت العناية بيني وبينهم، في أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي فئتين: من مطنب في تقريظه، منقطع إليه بجملته، منحط في هواه بلسانه وقلمه. يتلقى مناقبه إذا ذكرت بالتعظيم، ويشيع محاسنه إذا حُكيت بالتفخيم. ويعجب ويعيد ويكرر، ويميل على من عابه بالزراية والتقصير، ويتناول من ينقصه بالاستحقار والتجهيل فإن عثر على بيت مختل النظام أو نُبّه على لفظ ناقص عن التمام التزم من نُصرة خطئه، وتحسين زلـــله، ما يزيله عن موقف المعتذر، ويتجاوز به مقام المنتصر. وعائب يروم إزالته عن رتبته فلا يسلّم له فضيلة، ويحاول حطّه عن منزلة بوّأه إياها أدبه. فهو يجتهد في إخفاء فضائله، وإظهار معايبه، وتتبع سقطاته وإذاعة غفلاته، وكلا الفريقين إما ظالم له أو للأدب فيه.

إلى أن يقول القاضي العادل صاحب الوساطة:

وللفضل آثار ظاهرة، وللتقدم شواهد صادقة. فمتى وُجدت تلك الآثار وشوهدت هذه الشواهد، فصاحبها فاضل متقدم، فإن عثر له بعد ذلك على زَلة ووُجدت له بعقب الإحسان هفوة، انتُحل له عذر صادق، أو رخصة سائغة. فإن أعوز قيل زلّة عالم، وقَلّ من خلا منها، وأي الرجال المهذب؟».

ثم قال عمن لا يرون للمحدثين من الشعراء فضلاً:

«فإذا نزلتَ به إلى أبي تمام وأضرابه، نفض يده وأقسم واجتهد أن القوم لم يقرضوا بيتًا قط ولم يقعوا من الشعر إلا بالبعد. ومَن هذا رأيه ومذهبه، وهذه دعواه ونحلته، فقد أعطاك ما أردت من وجه وإن مانعك سواه، وسمح لك بما التمست وإن التوى عليك في غيره. لأن الذي انتصبتَ له، وشغلتَ عنايتك به إلحاقُ أبي الطيب بهذه الطبقة وإضافته إلى هذه الجملة، وقد بذل ذلك وقرَّب مطلبه عليك. فإن تكن الجماعة منسلخة من الشعر مرسومة بالنقص مستحقة للنفي، فصاحبك أوّلهم. وإن تكن قد علقتْ منه بسبب، وحظِيت منه بطائل، وكان لها فيه قدم ومنه حظ وموقع فهو كأحدهم.

إلى أن قال:

فإنك لا تدعى لأبي الطيب طريقة بشار وأبي نواس، ولا منهاج أشجع والخزيمي. ولو ادعيته إنما كنت تخادع نفسك أو تُباهت عقلك، وإنما أنت أحد رجلين: إما أن تدعى له الصنعة المحضة فتُلحقه بأبي تمام وتجعله من حزبه، أو تدعي له فيها شركًا وفي الطبع حظًّا. فإن ملت به نحو الصنعة فضل ميل صيَّرته في جنبة مسلم. وإن وفّرت قسطه من الطبع عدلت به قليلاً نحو البحتري.

وأنا أرى لك- إذا كنت متوخيًا للعدل مؤثراً للإنصاف- أن تقسم شعره فتجعله في الصدر الأول تابعاً لأبي تمام، وفيما بعده واسطة بينه وبين مسلم».

ثم تكلم القاضي المتوسط على ما في شعر أبي نواس وأبي تمام والبحتري من التفاوت، وانتقل إلى بيان السخيف والجيد من شعر أبي الطيب. ثم تكلم على ما ادُّعى فيه على الشاعر السرقة، وما ادعى فيه الغلط في اللغة والنحو والوزن، منتصراً للشاعر بالحق حينًا، معترفًا عليه بالزلل حينًا، وقد قال في مقدمة الكلام عما أخذ على الشاعر من الخطأ في اللغة واللحن:

«وقد قدَّمنا لك في صدر هذه الرسالة من شعر أبي نواس وأبي تمام وغيرهما ما مهدنا به الطريق إلى هذا القول، وأقمنا علمًا يرجع إليه في هذا الحكم. وأعلمناك أنه ليس بُغيتُنا الشهادة لأبي الطيب بالعصمة، ولا مرادُنا أن نبرئه من مقارفة زلة، وأنّ غايتنا فيما قصدناه أن نلحقه بأهل طبقته، ولا نُقصّر به عن رتبته، وأن نجعله رجلاً من فحول الشعراء، ونمنعك من إحباط حسناته بسيئاته، ولا نسوغ لك التحامل على تقدمه في الأكثر، بتقصيره في الأقلّ، والغض من عام تبريزه بخاص تعذيره».

فقد تبين بما نقلت رأى القاضي وهو تشريف أبي الطيب بإلحاقه بمسلم وأبي تمام والبحتري في إحسانهم والاعتراف بأن له سيئات مثلهم، وأنه بين صنعة مسلم وأبي تمام وطبع البحتري.

٥- وقال أبو منصور الثعالبي في اليتيمة:

«وتكلم الأفاضل في الوساطة بينه وبين خصومه، والإفصاح عن أبكار كلامه وعُونه، وتفرقوا فرقًا في مدحه والقدح فيه، والنضج عنه والتعصب له وعليه. وذلك أول دليل على وفور فضله، وتقدم قدمه، وتفرده عن أهل زمانه بملك رقاب القوافي، ورقّ المعاني. فالكامل من عُدّت سقطاته، والسعيد من أحصيت هفواته. وما زالت الأملاك تهجى وتمدح.

وأنا مورد في هذا الباب ذكر محاسنه ومقابحه، وما يرتضى وما يستهجن من مذاهبه في الشعر وطرائقه، وتفصيل نقد شعره، والتنبيه على عيونه وعيوبه، والإشارة إلى غُرَره وعُرره، وترتيب المختار من قلائده وبدائعه».

رأي الثعالبي قريب من رأي الجرجاني، وقد نقل عنه كثيراً من نقده ولكن الثعالبي أطلق القول ولم يقف بأبي الطيب عند أبي تمام والبحتري، ولا قال إن قُصاراه أن يلحق بهما كما صاحب الوساطة. وسأبين من بعد ما حكاه الثعالبي مما أخذ على الشاعر في ألفاظه ومعانيه.

هؤلاء الخمسة: ابن جنى والصاحب والأصفهاني والجرجاني والثعالبي من أُدباء القرن الرابع المعاصرين للشاعر أو الملحقين بالمعاصرين.

ومن المعاصرين أبو هلال العسكري (المتوفى سنة ٣٩٥) لم يحفل بأبي الطيب ولم يسمّه في كتاب الصناعتين، ولكن كنى عنه مرات عند التمثيل بالمستهجن من شعره. ثم صرح باسمه مرات في ديوان المعاني.

٦- وقال الشريف الرضي:

«أما أبو تمام فخطيب منبر. وأما البحتري فواصف جؤذر. وأما أبو الطيب المتنبي فقائد عسكر»[١].

٧- المعري والشريف المترضى:

وكان أبو العلاء المعري معجبًا بأبي الطيب. شرح ديوانه شرحين أحدهما اللامع العزيزي، والثاني معجز أحمد. وقد روى ياقوت ما وقع بين المعري والشريف المرتَضى ببغداد، من أجل أبي الطيب فقال:

«وكان أبو العلاء يتعصب للمتنبي ويزعم أنه أشعر المحدثين، ويفضله على بشار ومن بعده مثل أبي نواس وأبي تمام. وكان المرتضى يبغض المتنبي ويتعصب عليه... الخ»[٢].

وفي الشرح المنسوب إلى أبي العلاء المعري ما يُبين عن شدة تعصب أبي العلاء للشاعر. فقد رُوي فيه أن ابن جنى اعترض على قول أبي الطيب:

قد شرف الله أرضًا أنت ساكنها وشرف الناس إذ سوّاك إنسانا

وقال لو وضع كلمةً مكان سوّاك لكان أحسن. فرد عليه العَروضي قوله، إلى أن قال:

---

(١) الصبح ص ١٠٣ والمثل السائر.

(٢) معجم الأدباء ج ١.

«وعند أبي الفتح أنه يقدر على تبديل ألفاظ هذا الشعر بما هو خير منه؟ وقرأت على أبي العلاء المعري، ومنزلته في الشعر ما قد علمه من كان ذا أدب، فقلت له يومًا في كلمة: ما ضر أبا الطيب لو قال مكان هذه الكلمة كلمةً أُخرى أوردتُها؟! فأبان لي عوار الكلمة التي ظننتها. ثم قال لي: لا تظن أنك تقدر على إبدال كلمة واحدة من شعره بما هو خير منها. فجرّب إن كنت مرتابًا. وها أنا أجرب ذلك منذ العهد فلم أعثر بكلمة لو أبدلتها بأخرى لكانت أليق بمكانها، وليجرّب من لم يصدّق يجد الأمر على ما أقول».

وهذا القول عجيب من مثل المعري. فإن كان الراوي قد وهم فنسب إلى المعري ما لم يقل فهذه النسبة تؤيد ما عرف به المعرى من التعصب لأبي الطيب.

٨- وقال أبو سعيد محمد بن أحمد العميدي (المتوفى سنة ٤٤٣) في كتابه: الإبانة عن سرقات المتنبي لفظًا ومعنى.

«ولقد تأملت أشعاره كلها فوجدت الأبيات التي يفتخر بها أصحابه، وتعتبر فيها آدابه، من أشعار المتقدمين منسوخة، ومعانيها من معانيهم مسلوخة ... الخ».

ويرى القارئ أنه رأى متعصب أخذ عليه البغض مسالك الصواب.

٩- وقال ابن شرف القيرواني (المتوفى سنة ٤٦٠) في مقامته عن الشعراء: «وأما المتنبي فقد شُغلت به الألسن. وسَهرت في أشعاره

الأعين، وكثُر الناسخ لشعره، والآخذ لذكره، والغائص في بحره، والمفتش في قعره عن جُمانه ودرّه. وقد طال فيه الخُلف وكثر عنه الكَشف. وله شيعة تغلو في مدحه. وعليه خوارج تتعايى في جرحه. والذي أقول إن له حسنات وسيئات. وحسناته أكثر عدداً وأقوى مدداً. وغرائبه طائرة، وأمثاله سائرة. وعلمه فسيح، ومَيزه صحيح، يروم فيقدر، ويدري ما يورِد ويصدر».

١٠- وقال ابن رشيق القيرواني (المتوفى سنة ٤٦٣) في كتاب العمدة:

«وليس في المولّدين أشهر اسمًا من الحسن أبي نواس ثم حبيب والبحتري؛ ويقال إنهما أخملا في زمانهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد ثم يتبعهما في الاشتهار ابن الرومي وابن المعتز فطار اسم ابن المعتز حتى صار كالحسن في المولدين، وامرئ القيس في القدماء. فإن هؤلاء الثلاثة لا يكاد أن يجهلهم أحد من الناس.

ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس».

وقال: «وقد كان أبو الطيب كثير البديهة والارتجال إلا أن شعره فيهما نازل عن طبقته جدا. وهو لعمري في سعة من العذر».

«فإذا صرت إلى أبي الطيب صرت إلى أكثر الناس غلوًّا وأبعدهم فيه همة حتى لو قدَر ما أخلى منه بيتًا واحداً».

وفي موضع آخر سماه خاتم الشعراء [١].

١١- ونقل ابن رشيق رأيًا لأحد النقاد جديراً بأن ينقل هنا:

وقال بعض من نظر بين أبي تمام وأبي الطيب: إنما حبيب كالقاضي العدل يضع اللفظة موضعها، ويعطي المعنى حقه بعد طول النظر والبحث عن البينة، أو كالفقيه الورع يتحرى في كلامه ويتحرج خوفًا على دينه. وأبو الطيب كالملك الجبار يأخذ ما حوله قهراً وعنوة، أو كالشجاع الجريء يهجُم على ما يريده لا يبالي ما لقي ولا حيث وقع»[٢].

١٢- وقال علي بن أحمد الواحدي شارح الديوان (المتوفى سنة ٤٦٨): «وإن الناس منذ عصر قديم قد ولّوا جميع الأشعار صفحة الإعراض مقتصرين منها على شعر أبي الطيب المتنبي معرضين عما يروي لسواه، وإن فاقه وجاز في الإحسان مداه. وليس ذلك إلا لبخت اتفق له فعَلا وبلغ المدى. قال:

هو الجَدّ حتى تفضل العينُ أختها ... وحتى يكون اليوم لليوم سيدا

على أنه كان صاحب معانٍ مخترعة بديعة، ولطائف أبكار لم يُسبق إليها دقيقة. ولقد صدق من قال:

ما رأى الناس ثاني المتنبي ... أيّ يُرى لبكر الزمان

هو في شعره تنبّى ولكن ... ظهرت معجزاته في المعاني

---

(١) العمدة ج ١ ص ٦٤، ١٢٨، ١٦٣ وج ٢ ص ٥١.

(٢) العمدة ج ١ ص ٨٧.

ولهذا خفيت معانيه على أكثر من روى شعره من أكابر الفضلاء والأئمة، حتى الفحول منهم والنجباء، كالقاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني، صاحب كتاب الوساطة وأبي الفتح عثمان بن جنى النحوي وأبي العلاء المعري وأبي علي بن فورّجة البروجِردي ... الخ».

وقال بعد شرح أبيات أبي الطيب التي وصف بها كتاب أبي الفتح بن العميد، وهي التي أولها:

بكتب الأنام كتاب ورد فدت يد كتابه كلُّ يد

«ولو خرس المتنبي ولم يصف كتاب ابن العميد بما وصف لكان خيراً له فكأنه لم يسمع قط وصف كلام ... الخ».

وقال بعد شرح الأبيات التي نظمها يوم نثر الورد عند عضد الدولة، والتي أولها:

قد صدق الورد في الذي زعما أنك صيّرت نثره ديَما

«وهذه قطعة في وصف الورد غير مليحة. وليس المتنبي من أهل هذه الأوصاف. وهي كالقطعة التي وصف فيها كلام ابن العميد» وقد روي العكبري كلمة الواحدي بهذه العبارة:

«وليس المتنبي من أهل الأوصاف».

وننتقل إلى رأي أديب من أدباء القرن السادس والسابع.

١٣- قال أبو البقاء العكبري شارح الديوان (المتوفى سنة ٦١٦) بعد شرح البيت:

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثني وبياض الصبح يُغرى بي

«وقد أجمع الحُذّاق بمعرفة الشعر والنقاد، أن لأبي الطيب نوادر لم تأت في شعر غيره. وهي مما تخرق العقول. منها هذا البيت ومنها ... الخ» أورد الشارح أكثر من مائة بيت من مختار شعر أبي الطيب. ثم قال: «فهذا الذي لم يأت شاعرَ بمثله. وإنما ذكرناه مُجمَلاً ليسهل أخذه وحفظه، ولو تصفحتَ دواوين المجيدين المولّدين والمحدَثين، لم تجد لأحد منهم بعض هذا إلا نادراً، ولكن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، يؤتى الحكمة من يشاء».

وقال- بعد أن نقل قول الواحدي أن المتنبي ليس من أهل الأوصاف: «قلت إنما المتنبي ممن يحسن الأوصاف في كل فن. وإنما هذا الذي يأتي له في البديهة والارتجال أو في وقت يكون على شراب أو غيره فلا يعتدّ به. ولو كان أبو الفتح (يعني ابن جنى) عمل صوابًا لكان أسقطه من شعره، ولولا أن من تقدمني شح هذه المقطعات وأثبتها لما ذكرتها في كتابي هذا».

١٤- وأختم كلام النقاد بقول أبرعهم وأنقدهم ابن الأثير الجزري صاحب المثل السائر (المتوفى سنة ٦٣٧). قال في المثل السائر:

«ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع، وأنفدت شطراً من العمر في المحفوظ منه والمسموع. فألفيته بحراً لا يوقَف على ساحله. وكيف ينتهي إلى إحصاء قول لم تُحص أسماء قائله؟ فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثر فوائده، وتتشعب مقاصده، ولم أكن ممن أخذ بالتقليد والتسليم، في اتباعه من قصَر نظرَه على الشعر القديم. إذ المراد من الشعر إنما هو إبداع المعنى الشريف في اللفظ الجزل واللطيف. فمتى وجد ذلك فكل مكان خيّمتَ فهو بابل. وقد اكتفيتُ في هذا بشعر أبي تمام حبيب بن أوس، وأبي عبادة الوليد، وأبي الطيب المتنبي. وهؤلاء الثلاثة هم لات الشعر وعُزّاه ومناته، الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته. وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين إلى فصاحة القدماء، وجمعت بين الأمثال وحكمة الحكماء».

ووصف ابن الأثير أبا تمام والبحتري ثم قال في وصف أبي الطيب:

«وأما أبو الطيب المتنبي فإنه أراد أن يسلك مسلك أبي تمام فقصُرت عنه خطاه، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه، لكنه حَظِي في شعره بالحكم والأمثال، واختص بالإبداع في وصف مواقف القتال. وأنا أقول قولاً لستُ فيه متأثمًا، ولا منه متلثّمًا. وذاك أنه إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نِصالها وأشجع من أبطالها، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها؛ حتى تظن الفريقين قد تقابلا، والسلاحين قد تواصلا. فطريقه في ذلك يضل بسالكه، ويقوم بعذر تاركه.

ولا شك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة بن حمدان فيصف لسانه ما أدى إليه عيانه.

ومع هذا فإني رأيت الناس عادلين فيه عن سَنن الوسَط فإما مفرِّط في وصفه، وإما مفرِط. وهو- وإن انفرد بطريق صار أبا عذره- فإن سعادة الرجل كانت أكبر من شعره. وعلى الحقيقة فإنه خاتَم الشعراء ومهما وُصف به فهو فوق الوصف وفوق الإطراء. ولقد صدق في قوله من أبيات يمدح بها سيف الدولة:

لا تطلبنّ كريمًا بعد رؤيته ... إن الكرام بأسخاهم يداً خُتموا
ولا تبال بشعر بعد شاعره ... قد أفسد القول حتى أُحمِد الصمم

ولما تأملت شعره بعين المعدلة البعيدة عن الهوى، وعين المعرفة التي ما ضل صاحبها وما غوى. وجدته أقسامًا خمسة: خُمس في الغاية التي انفرد بها دون غيره، وخُمس من جيّد الشعر الذي يساويه فيه غيره، وخمس من متوسط الشعر، وخمس دون ذلك، وخمس في الغاية المتقهقرة التي لا يُعبأ بها، وعدمها خير من وجودها. ولو لم يقلها أبو الطيب لوقاه الله شرّها. فإنها هي التي ألبسته لباس الملام. وجعلته عرضة لسهام الأقوام».

خلاصة هذه الآراء

إذا استثنينا العميد، وينبغي أن يخرج من بين هؤلاء النقّاد، فالإجماع على أن أبا الطيب من فحول الشعراء وفرسان البيان المتصرفين في فنون القول المخترعين دقائق المعاني.

وجلّ هؤلاء النقاد يرون له إلى حسناته سيئات. ثم يختلفون في النظر إلى سيئاته:

يحاول بعضهم تعظيما والمبالغة فيها، وهم: الصاحب بن عباد والشريف المرتضى، ويُلحق بهم أبو القاسم الأصفهاني. على أن الصاحب قد اعترف بفضل الشاعر في رسالته التي جمع فيها أمثاله كما سيأتي.

ومنهم من يحاول الإغضاء عنها أو دَفعها والاعتذار لها، وهم: ابن جنى والمعري والعكبري.

ومنهم من يقدرها قدرها لا يبغي التسميع بها، ولا تهوينها، وهم الأكثرون: الجرجاني والثعالبي وابن شرف وابن رشيق والواحدي.

وإذا قيس أبو الطيب إلى الشعراء فالمعري والعكبري يرفعانه فوقهم جميعًا. والجرجاني يلحقه بأبي تمام والبحتري، ويقف به دون أبي نواس وبشار. وابن الأثير يقول: إنه أراد أن يقفو أثر أبي تمام فقصرت به خطاه، ولكنه فاقه وغيره من كبار الشعراء في الأمثال والحكم ووصف القتال وبذّ الشعراء جميعًا في قسم من شعره. وجاري كبارهم في قسم. وتوسط في آخر فسار مع أوساط الشعراء وتخلف في قسم آخر فلم يساير الأوساط ثم جاء سكيتًا بعد هذا.

مساوئه ومحاسنه في رأي الثعالبي خاصة

عدّ الصاحب بن عباد رسالته بعض مساوئ أبي الطيب. وجمع الثعالبي إلى مآخذ الصاحب عيوبًا أخرى. واقتفى المؤلفون من بعدُ آثارهما.

والفصل الطويل المستوعب الذي كتبه الثعالبي في اليتيمة عن الشاعر يشتمل على تسعة عشر عيبًا، وواحد وعشرين مزية. وقد رأيت أن ألقي نظرة شاملة عاجلة على هذه المساوئ والمحاسن في هذا الفصل لأفرغ للإبانة عن خصائص الشاعر ومزاياه كما أراها.

(أ)

المساوئ التي عدّها الثعالبي

بدأت الثعالبي بالكلام على سرقات الشاعر ثم قال:

«والآن حين أذكر ما يُنعى على أبي الطيب من معايب شعره ومقابحه.

ومن ذا الذي تُرضَى سجاياه كلها ... كفى المرءَ نبلاً أن تُعَدّ معايبه

ثم أقفّى على آثارها بمحاسنه وسياق بدائعه.

فحسن دَراريّ الكواكب أن تُرى ... طَوالع في داج من الليل غيهب».

ثم شرع يعدد هذه المعايب. وأنا أسردها هنا موجزا مخالفا ترتيب الثعالبي لأجمع الأشباه معا، وأردّها إلى أصولها، وقد رددت المعايب كلها إلى أربعة أقسام:

ما يرجع إلى اللفظ، وما يرجع إلى المعنى، وما يرجع إلى آداب القصائد أو الخطاب المتواضع عليها في ذلك العصر، وغير هذا.

وأما ما عُد من سرقات الشاعر فلا أعني به. فلست أرى اتفاق شاعرين أو أخذ واحد عن الآخر أمراً ذا بال في تقديرهما وتقويم شعرهما. والذي أراه أن الشاعر إذا أمدّه طبعُ شاعر، وعلم واسع فبلغ مكانة يخترع فيها المعاني أو يصور ما عرف منها تصويراً يُرى عليه طابعه، وكان لا يعجزه أن يخترع ويصور غير متطلع إلى ما سبق إليه- فهو شاعر ينطق بما في نفسه غير مفرق بين ابتداع واتباع، ويصور ما يدرك تصويراً يشبه الاختراع، ولا يعوزه النظر في كلام غيره قبل أن يقول. ويجتمع في نفسه ما يخترعه وما سُبق إليه معدنًا واحداً، وكنزاً من النفائس مختلطًا.

إن كان الشاعر كذلك فعبث أن يعد عليه ما وافق به فلانًا، أو يوصم بأنه سرق من فلان.

وآية بلوغ الشاعر هذه المكانة أن ترى ما يستبد به مساويًا أو أعلى مما يشارك فيه، ولا تجد ما أخذه من غيره لُمعاً بيضاء في شعر أسود، وكلاماً محكماً بين كلام مهلهل.

وكل ما سموه سرقات أبي الطيب ليس غرراً في دُهمة، ولا نجوماً في ظلمة؛ ولكنه كلام يشاكل ما لم يدع فيه السرقة ويلائمه حتى ليدرك الناظر فيهما أنهما نتاج طبع واحد. وإن يكن بعضه أعلى من بعض؛ فالعلو في

جانب ما اخترعه ولم يتهم فيه بأخذ. وحسبي هذه الجملة الدالة على ما وراءها.

ثم أجمل ما ذكره الثعالبي على التقسيم الذي أسلفته مؤثراً ألفاظ الثعالبي مكتفيًا بمثال يبين ما عناه الناقد.

القسم الأول:

١- استعمال الغريب والوحشي كقوله:

ولا أرضى لمقلته بحُلم إذا انتبهت توهّمُه ابتشاكا

والابتشاك الكذب. ولم أسمع فيه شعراً قديماً ولا حديثاً سوى هذا البيت.

٢- وعسف اللغة والإعراب كقوله:

فدى من على الغبراء أولهم أنا لهذا أبي الجائد الماجد القرم

ولم يحك عن العرب الجائد.

٣- وتكرير اللفظ في البيت الواحد من غير تحسين كقوله:

ومن جاهل بي وهو يجهل جهله ويجهل علمي أنه بي جاهل

٤- والاستكثار من قول ذا كقوله:

أبا المسك ذا الوجه الذي كنت تائقاً إليه وذا اليوم الذي كنت راجيا

أفي كل يوم ذا الدّمستق مقدم قفاه على الأقدام للوجه لائم

***

أريد من زمني ذا أن يبلغني ما ليس يبلغه في نفسه الزمن

٥- والركاكة والسفسفة بألفاظ العامة ومعانيهم كقوله:

لسريّ لباسه خشن القطن ومرويّ مروَ لبسُ القرود

٦- وامتثال ألفاظ المتصوفة واستعمال كلماتهم المعقدة ومعانيهم المغلقة كقوله في وصف الفرس:

وتُسعدني في غمرة بعد غمرة سَبوحٌ لها منها عليها شواهد

***

إذا ما الكأس أرعشت اليدين صحوتُ فلم تحل بيني وبيني

٧- واستكراه اللفظ وتعقيد المعنى كقوله:

إذا عذلوا فيها أجبت بأنة حُبيّيتا! قلبي فؤادي هياجُمل

***

لساني وعيني والفؤاد وهمتي أوَدّ اللواتي ذا اسمها منك والشطر

٨- والخروج على الوزن:

تفكّره علم ومنطقه حكم وباطنه دين وظاهره ظرف

وقد خرج فيه عن الوزن لأنه لم يجيء عن العرب مفاعيلن في عروض الطويل غير مصرّع وإنما جاء مفاعلن.

نظرة في هذه المآخذ

هذا ما جمعه الثعالبي من المآخذ اللفظية، وقد ساق لكل ما أخذ أمثلة عدة وفي الديوان أمثلة غير التي ذكرها. والمقصد هنا التمثيل لا الحصر.

ولست أنكر أن قارئ الديوان يعثر بمثل هذه الأبيات ومرجعها إلى أمور: قلة المبالاة باللفظ إذا لمح الشاعر وراءه المعنى الذي يريده؛ فلا يعنيه أن يكون غريبًا أو عاميًّا أو مكرّراً. وربما يحمد للشاعر أن يتحرر من رق الألفاظ وربما يقتضي المقام الإسفاف إلى كلمة مبتذلة لا يسد غيرها مسدها، وفي قلة المبالاة شَبَه بأخلاق الشاعر الذي خرج عن المألوف في كثير من أموره.

ثم مع قلة المبالاة ميل إلى الإغراب يظهر في شعر الصبا والشباب؛ إذ كان الرجل معجباً بنفسه يودّ أن يلفت الناس إليه فيتوعر أحيانًا ويتكلف، ويؤثر تفكير العقل على وحي الطبع. ولا سيما في مطالع القصائد كأنه لا يرضى أن يبتدئ بكلام يسير مألوف.

وإلى قلة المبالاة والميل إلى الإغراب معرفة واسعة باللغة مستعملها وغريبها وشاذها، وصحبة للأعراب وإلف لكلامهم والأخذ عنهم، وهذا كله جعله يأنس بالنافر من اللغة أنسًا يقربه إليه، كما يستأنس الوحش، ولعله أراد أحيانًا أن يدل على بصره باللغة وعلمه بغريبها.

ثم لا ننسى أن الشاعر كان كوفيًّا يميل إلى آراء الكوفيين. وكثير مما أنكر عليه له مساغ عندهم، ومن يقرأ إملاءه على الأبيات الشاذة من شعره، ويرى كيف يحتج لها ويسوق الشاهد بعد الشاهد، يعرف أن الرجل لم يؤتَ من جهل باللغة بل من سعة علم بها، وقد قدمت قول ابن جنى في هذا، وقد قرأ عليه ديوانه وجادله في هذه الشواذ وعرف احتجاجه لها، وشواهده عليها.

أنا لا أدفع عن الرجل هذه المآخذ؛ ولكن أدعو إلى أن تعرف أسبابها، وتقدر قدرها، فيبقى معها أبو الطيب شاعراً مطبوعًا فحلاً مخترعًا في شعره هنات لفظية.

وبعد فهذه العيوب ليست أمراً غالباً أو شيئاً مطرداً في شعر الرجل؛ ولكن تقع نادراً ولا سيما في شعره الأول، ولعلك تقرأ في الديوان عشر قصائد متتابعة لا تجد فيها مأخذاً مما ذكر.

وأما الخروج على الوزن فأمر ذو بال، عجيب أن يؤخذ على مثل أبي الطيب، وقد قال صاحب الوساطة في هذا بعد ذكر البيت الذي أتى به الثعالبي:

«قالوا خرج عن الوزن لأنه لم يجئ عن العرب مفاعيلن في عروض الطويل غير مصرّع. قال المحتج إنما جاء البحر على مفاعيلن وليس يحظر على الشاعر إجراؤه على الأصل، وقد رضوا العروضيون فيه- وإن يكن مصنوعًا- بيتًا. وقد جاء عن العرب مفاعيلن في المصرّع، وما خرج عن الوزن لم يحتمله المصرّع ولا غيره.

قال امرؤ القيس:

ألا أنعَم صباحًا أيها الطلل البالي وهل ينعمن من كاد في العصُر الخالي

فجاء بالعروض على مفاعيلن لما صرّع. قالوا: وقد جاء في شعر المحدثين ما أجروا فيه غير المصرّع مجرى المصرع؛ قال شاعرهم:

فالوجه مثل الصبح مبيضّ والشعر مثل الليل مسودّ

وأبو الطيب أعذر من هذا لأنه جرى على أصل البحر في الدائرة، وقد جرى أبو تمام إلى ما هو أقبح من الأمرين فصرّع المصرَاع في قوله:

يقول فيُسمعُ ويمشي فيسرع ويضرب في ذات الإله فيوجع

وعلى مثل هذا الطريق يعاب أبو الطيب بقوله:

إنما بدر بن عمار سحابُ هطل فيه ثواب وعقاب

لأنه أخرج الرمل على فاعلاتن في العروض، فأجرى على ذلك جميع القصيدة في الأبيات غير المصرّعة، وإنما جاء الشعر فيه على فاعلن لكن أصله في الدائرة فاعلاتن وإن كان غير محفوظ عن العرب». انتهى كلام صاحب الوساطة.

والبيت الأول أخذه ابن جنى على الشاعر من قبل. وقال فيه الواحدي: «أقرب ما يُصرف إليه أنه ردَّ مفاعلن إلى أصلها وهو مفاعيلن لضرورة الشعر».

هذا مبلغ ما أخذ عليه في الوزن، وهو أمر تختلف فيه الأنظار، ولو غُربلت دواوين الشعراء الآخرين على هذا الشاكلة ما سلموا من مثل هذا.

ثم هذه الابيات من شعر الشباب، وأبيات بدر بن عمار التي من الرمل، قالها ارتجالاً في مجلس شراب، وهي تسعة أبيات.

القسم الثاني من مآخذ الثعالبي:

عدَّ الثعالبي؛ مما يرجع إلى المعنى، المساوئ الآتية:

١- الإفراط في المبالغة، والخروج فيها إلى حدّ الإحالة.

كقوله:

وضاقت الأرض حتى صار هاربهم إذا رأى غيرَ شيء ظنه رجلا
فبعدها وإلى ذا اليوم لو ركضت بالخيل في لَهَوات الطفل ما سَعَلا

***

ونالوا ما اشتهوا بالحزام هَونًا وصاد الوحشَ نملُهم دبيبا

***

ولو قَلَمٌ ألقيتُ في شَقّ رأسه من السّقم ما غيّرتُ من خطّ كاتب

٢- وإبعاد الاستعارة والخروج بها عن حدها. كقوله:

مسرّة في قلوب الطيب مَفرقها وحَسرةٌ في قلوب البَيض واليلَب

***

إلاّ يشبْ فلقد شابت له كبد شيباً إذا خضبته سلوة نصلا

٣- وتعقيد المعنى كقوله:

أنّي يكون أبا البرايا آدم وأبوك، والثقلان أنت، محمد

٤- والغلط بوضع الكلام في غير موضعه كقوله:

وغرّ الدّمُستُقَ قول الوشاة إنّ عليًا ثقيلٌ وصِب

جعل الأمراء يوشى بهم. وإنما الوشاية السعاية ونحوها.

وكقوله في وصف الفرس:

* وزاد في الأذن على الخرانق *

وأذُن الفرس يستحب فيها الدقة والانتصاب. وأذن الأرنب على الضد من هذا الوصف.

٥- الخروج عن طريق الشعراء إلى طريق الفلسفة. كقوله:

ولجدتَ حتى كدتَ تبخل حائلاً للمتهَى ومن السرور بكاء

***

إلف هذا الهواء أوقع في الأنفس أن الحِمام مُرّ المذاق
والأسى قبل فرقة الروح عجز والأسى لا يكون بعد الفراق

فأما الثلاثة الأولى فلا تُنكر في شعره. وفي الديوان غير ما ذكر الثعالبي أمثلة أخرى كقوله في الغلوّ:

لنوره في سماء الفخر مختبرق لو صاعد الفكرُ فيها الدهر ما نزلا

***

معي ما يُشر نحو السماء بوجهه تخرّ له الشعري وينخسف البدر

***

رجلٌ طينه من العنبر الورد وطين العباد من صلصال
فبقيّات طينه لاقت الماء فصارت عذوبة في الزلال
وبقايا وقاره عافت الناسَ فصارت ركانة في الجبال

ومنها قوله في شعر سيف الدولة:

وأشقى بلاد الله ما الروم أهلها بهذا وما فيها لمجدك جاحد

وفي شعر عضد الدولة:

إذا اشتبهت دموع في خدود تبين من بكى ممن تباكى

أذمّت مكرمات أبي شجاع لعيني من نواي، على أولاكا

وهذا يقع في شعره الأول، ويقل على مرّ الزمان حتى يندر جدًّا بعد اتصاله بسيف الدولة. ولا يستطيع ناقد أن يأتي بعشرة أمثلة منه في السيفيات وما بعدها.

وأما الغلط فأنكره. وهو دعوى بغير دليل. وما ذكره الثعالبي لا يقوم بدعواه. ففي البيت:

وغرّ الدمستُق قول الوشاة ... الخ. رويت العداة مكان الوشاة فسقط الاحتجاج به. وقوله: «وزاد في الأذن على الخرانق» لا عيب فيه. فالخرانق صغار الأرانب وآذانها لطيفة صغيرة ولم يرد الشاعر غير هذا. وليس الثعالبي ممن يعلم أبا الطيب وصف الخيل، وأبو الطيب صديقها المعجب بها القائل:

وما الخيل إلا كالصديق قليلة وإن كثرت في عين من لا يجرّب
إذا لم تشاهد غير حسن شياتها وألوانها فالحسن عنك مغيب

وأما الخروج إلى طريق الفلسفة فهو من حسنات الشاعر. وحسب الناقد سقوط حجة أن يعيب مثل قوله:

إلف هذا الهواء أوقع في الأنـ ـفس أنّ الحِمام مُرّ المذاق

إن الشعر في حاجة إلى من يسمو به إلى مستوى الفلسفة، والنظر البعيد الشامل، ويصوّر به المسائل العويصة. وليست الفلسفة منافية للشعر. كل قضايا الفلسفة، وكل حقيقة في هذا العالم تدخل في الشعر إذا صبغها

الإنسان بعاطفته فأبان بها عن حزن أو ألم أو تعجب أو حيرة، وانظر قول المعري:

فالهلال المنيف والبدر والفر ... قد والصبح والثرى والماء
والثريا والنار والنثرة والأ ... رض والضحى والسماء
هذه كلها لربك ما عابك ... في قول ذلك الحكماء

لم ينفر الشعر من هذه الحقائق حين أعرب بها الشاعر عن شعوره الديني. وأدخلُ من هذا في الطبيعة قوله:

وأرى الأربع الغرائز فينا ... وهي في جُثّة الفتى خُصَماء
إن توافقن صحّ أولا فما ... ينفكّ فيه الإمراضُ والإغماء

وقوله:

الخلق من أربع مجمعة ... ماء ونار وتربة وهوا

فقد صار هذا شعراً حين عبّر به الشاعر عن سخطه على الحياة أو جعلَه مقدمة لهذا التعبير. ومن الذي يُخرج من الشعر قول الشاعر:

أشابَ الصغيرَ وأفنى الكبير ... كرّ الغداة ومرّ العشي
إذا ليلة هرّمت يومها ... أتى بعد ذلك يوم فتّى
نروح ونغدو لحاجاتنا ... وحاجة من عاش لا تنقضي

وقول زهير:

وأعلمُ علم اليوم والأمس قبله ... ولكنني عن علم ما في غد عمى

كلّ هذا من الشعر لأنه يترجم عن عاطفة من عواطف الإنسان يوقظها النظر في هذا العالم، هذا بيان واسع لو اتسع المقام.

وخلاصة القول فيه أن حقائق العالم إذا ذكرها الإنسان لإثباتها كما هي فهي من العلم وليست من الشعر في شيء. وإذا ذكرها متصلة بعاطفته أو مصوَّرة بخياله صلحت أن تكون شعراً. اعتبر هذا في الشعر والنثر يتضح صدقه. وكم ربَح الشعر مما يسمى فلسفة في شعر أبي تمام وأبي الطيب والمعرّي.

القسم الثالث من مآخذ الثعالبي:

عدّ الثعالبي عيوبًا جمعتُها في هذا القسم، وأدمجت بعضها في بعض فهي ضربان:

١- قبح المطلع والمقطع واستكراه التخلص. كقوله في المطالع:

هـذه بـرزتِ لنـا فهجـت رسيـسا ثـم انثنيـت ومـا شـفيت نسيـسا

***

أُحـادُ أم سُـداس فـي أُحـاد لُبِّلَتنـا المنوطـة بالتنـادي

***

وفاؤكمـا كـالربع. أشـجاه طاسـمه بـأن تُسعدا، والـدمع أشـفاه ساجمه

وقوله في المقاطع:

لو لم تكن من ذا الورى اللذمنك هو عقمـت بمولـد نـسلها حـواء

***

لـو الفلـك الـدوار أبغـضت سـعيه لعوّقـه شـيء عـن الـدوران

والمطالع والمقاطع كغيرها من الأبيات في تقدير الحسن والقبح. وميزها النقاد من غيرها لأنها أول ما يسمع مستمع الشعر وآخر ما يسمع؛ فكان لها في النفس من الأثر أكثر من سائر الأبيات؛ ولأن القصائد يغلب فيها المدح، وآدابُ مخاطبة الممدوح في مطلع الكلام وفي مقطعه كان لها في عناية القدماء نصيب كبير.

والتعقيد في مطالع أبي الطيب ومقاطعه يرجع إلى ولوعه بأن يبتدئ بشيء عجيب. وإلى هذا الولوع بالإغراب يرجع كثير من العيوب التي تقدم الكلام فيها. وهذا أيضاً ضرب يندر فيها بعد شعر الشباب.

٢- والضرب الثاني سماه الثعالبي، إساءة الأدب بالأدب كقوله:

فغدا أسيراً قد بللت ثيابه بدم ويلّ بيوله الأفخاذا

وقوله في رثاء أم سيف الدولة:

بعيشك هل سلوتِ فإن قلبي وإن جاورتُ أرضك غيرُ سال

وفي رثاء أخته:

وهل سمعت سلامًا لي ألمّ بها فقد أطلتُ وما سلمتُ عن كثب

قال الثعالبي وما باله يسلّم على حُرَم الملوك ويذكر منهن ما يذكره المتغزّل في قوله:

يعلمن حين تُحيا حسنَ مبسمها وليس يعلم إلاّ الله بالشّنب

وكان أبو بكر الخوارزمي يقول: لو عزّاني إنسان عن حرمة لي بمثل هذا لألحقته بها، وضربت عنقه على قبرها.

ويمكن أن يزاد على هذا أمثلة أخرى كقوله في مدح محمد بن سيار:

قسا فالأسد تفزع من يديه ورق فنحن نفزع أن يذوبا

وقوله في مدح بدر بن عمار:

أُشفِق عند اتقاد فكرته عليه منها أخاف يشتعل

وقد جاء مثل هذا في قوله لسيف الدولة مشيراً إلى تركه وقصد كافور:

ومن ركب الثورَ بعد الجواد أنكر أظلافه والغبب

وهذا في رأيي يرجع إلى شيء من الخشونة في طبع الشاعر، وإلى جرأة وكبرياء يهونان عليه خطاب الناس دون احتراز، وتسوية نفسه بمن يمدحه. فهي ترجع إلى الأخلاق والآداب أكثر مما ترجع إلى الشعر. ولعل فيها خروجًا محموداً على السنن الذليلة التي سار عليها الشعراء المتقدمون.

بقى من المساوئ التي عدها الثعالبي اثنتان:

١- التفاوت في شعره أو كما قال الثعالبي تبعاً للصاحب: إتباع الفقرة الغرّاء بالكلمة العوراء، والإفصاح بذلك في شعره عن كثرة التفاوت وقلة التناسب وتنافر الأطراف وتخالف الأبيات».

وليس هذا عيباً منفرداً. فالمساوئ التي تقدم الكلام فيها إذا وقعت في شعر شاعر مُجيد، فإنما تقع بعد الفقر الغراء فيكون التفاوت وقلة التناسب. وتأويل هذا أن شعر المتنبي يبلغ في جملته مكانة من الفصاحة والبلاغة لا ينتظر السامع أو القارئ فيها هذه العيوب. فإذا وقعت كانت

كعثار السائر، أو هوىّ الطائر، أو كرقعة في ثوب قشيب؛ فيظهر التفاوت الذي راع النقّاد.

٢- والإيضاح عن ضعف العقيدة ورقة الدين:

وهذا لا يتعلق بالشعر. وقد أدرك الثعالبي ذلك فقال:

«على أن الديانة ليست عياراً على الشعراء، ولا سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر».

وأنا أشفق هنا من التعرض لنظرية الفن للفن ونظرية الفن للمقاصد الإنسانية العالية. فليس هنا مجال القول فيها. وأبو الطيب لم يُعنَ بالدين في شعره عناية تسوّغ لنا التوسع هنا في الكلام في دينه وشعره، والاستطراد إلى نظريات النقاد.

وقد بينت رأيي آنفًا في دين أبي الطيب.

(ب)

المحاسن التي ذكرها الثعالبي

وأما المحاسن التي عدها الثعالبي، وهي إحدى وعشرون، فليست عندي ذات بال. فكل شاعر عظيم ينبغي أن يكون شعره كله محاسن إلا ما يقع بين الحين والحين من هفوة أو تقصير. وإن كانت مساوئ الشاعر العظيم معدودة فمحاسنه ينبغي أن تأبى على العدّ. ولكني أعدّد هنا ما ذكره الثعالبي من المحاسن لفائدتين:

أن يقف القارئ على رأي الثعالبي وأمثاله في مناقب الشاعر بعد أن عرف رأيهم في مثالبه، وأن أنبّه إلى ما هو جدير بالعناية منها. وهو ما يحسب من خصائص الشاعر وأسلوبه البدع تمهيداً للكلام عن مزاياه وخصائصه في الفصل الآتي:

وأخالف ترتيب الثعالبي، وأجمع الأشباه معًا إيثاراً للإيجاز:

١- حسن المطلع والتخلص والمقطع.

وهذا يقابل ما أخذ عليه من القبح في هذه الثلاثة. والإحسان فيها أصل والإساءة استثناء.

٢- وحسن التقسيم وحسن سياقة الأعداد.

وقد مثل للأول بأمثلة منها:

ضاق الزمان ووجه الأرض عن ملك ... ملء الزمان وملء السهل والجبل
فنحن في جذَل، والروم في وجَل ... والبر في شُغل، والبحر في خجَل

ومن أمثلة الثاني:

الخيل والليل والبيداء تعرفني ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم

٣- والإبداع في سائر مدائحه، وحسن التصرف في مدح سيف الدولة بجنس السيفية، والمدح الموجه، والإيجاع في الهجاء، وحسن التصرف في الغزل، وافتضاض أبكر المعاني في المراثي والتعازي.

٤- وحسن التشبيه بغير أداة التشبيه، والإبداع في سائر التشبيهات والتمثيلات.

٥- والتمثيل بما هو من جنس صناعته.

يريد الثعالبي بهذا ذكر الشاعر الحروف الهجائية واصطلاحات النحو ... الخ.

في مثل قوله:

نِتاجُ رأيك في وقتٍ على عجَل كلفظ حرفٍ وعاه سامعٌ فَهِم

وقوله:

حولي بكل مكان منهم خِلقٌ تُخطى إذا جئتَ في استفهامها بمَنِ

وقوله في مدح سيف الدولة:

أولَ حرف من اسمه كتَبتْ سنابك الخيل في الجلاميد

وسيف الدولة اسمه علي. فسنابك الخيل لها في الصخر أثر كرأس العين.

٦- والنسيب بالأعرابيات.

٧- ومخاطبة الممدوح من الملوك بمثل مخاطبة المحبوب والصديق مع الإحسان والإبداع.

٨- واستعمال ألفاظ الغزل والنسيب في أوصاف الحرب.

٩- وإرسال المثل في أنصاف الأبيات، وإرسال المثلين في مصراعي البيت الواحد.

١٠- وإرسال المثل والموعظة وشكوى الدهر والدنيا الناس وما يجرى مجراها.

هذا إجمال ما عدّه الثعالبي ويهمنا منها النوع الخامس فما بعده إلى العاشر وستأتي أثناء الفصل الآتي.

ويرى القارئ أنّ الثعالبي لمح دراً منثورة لم ينظمها في سلك، وزهرات متفرقة لم يجمعها في باقة، بل رأى في العقد حبات متفرقة وفي الروضة زهرات متباعدة، ومع هذه المحاسن محاسنُ لم يذكرها النقاد، ووراء هذه وهذه مزايا أنتجتها، وخصائص في طبع الشاعر أدت إليها. وهذا موضوع الفصل الآتي.

الفصل الرابع

رأيي في شعر أبي الطيب وخصائصه

مقدمة

البيان كله تصوير وتعبير عمّا يُدرك الإنسان في هذا العالم من أشياء حسّية وأمور معنوية. فللبيان أركان ثلاثة: المعنى الذي يُدرك، والصورة التي يصوَّر فيها، واللفظ الذي ينقل هذا المعنى وصورته إلى السامع والقارئ.

١

الركن الأول، المعاني المدركة

كل ما في هذا العالم سمائه وأرضه من حقائق آفاقية ونفسية، تصلح أن تكون موضوعات للبيان البليغ نظمه ونثره، إن وصلها الإنسان بنفسه فصبغها بعاطفته أو صورها بخياله، أو جلاها وفصّلها بصنعته. والناس يختلفون فيما يدركون قلة وكثرة، وضيقاً وسعة، وإجمالاً وتفصيلاً. وكلما اتسع علم الإنسان بحقائق العالم وأحواله اتسع مجال البيان عنده، وكثرت موضوعات البيان ومعانيها لديه. فكان أشمل بيانا وأقدر على أن يخاطب النفوس المختلفة من العلماء والجهال، والخاصة والدهماء، وكان بيانه أكثر اتصالا بحقائق العالم، وأوفى نصيباً من الخلود.

اختلاف الموضوعات في صلتها بالإنسان:

ثم الموضوعات التي يعالجها البيان، هذه الحقائق النفسية والآفاقية التي هي مادة النظم والنثر، تختلف في اتصالها بالإنسان: منها ما هو محكم الاتصال بشعوره وعاطفته، ومنها ما هو أضعف صلة بالعاطفة والشعور.

وهي في هذا تتوالى من مركز الدائرة إلى محيطها. والشعر والنثر في هذا مختلفان. الشعر أقرب إلى المركز وأشد اتصالاً بالعاطفة، والنثر أقرب إلى المحيط وأبعد عن المركز. وكلاهما تحيط به هذه الدائرة التي تشمل حقائق العالم كلها موصولةً بعاطفة الإنسان وشعوره.

فقول أبي العلاء المعرّي:

الخلق من أربع مجمعة نار وماء وتربة وهوا

دخل في الشعر لأنه لم يُرد تبيين عناصر العالم والإنسان كما يبينها عالم طبيعي؛ بل وصلها برأيه في ضعف تركيب العالم، وتعرضه للانحلال والفناء، كما قال:

وأرى الأربع الطبائع فينا وهي في جثة الفتى خصماء
إن توافقن صح أولا فما ينـ ـفك عنها الإمراض والإغماء

لم يبين هنا أمزجة الإنسان تبيين طبيب، ولكنه جعل هذا البيان وسيلة إلى قوله فيما يقاسيه الإنسان في الحياة من السقام والآلام.

وقول القائل:

منع البقاءَ تقلبُ الشمس وطلوعُها من حيث لا تُمسي

وطلوعهـــا حمـــراء صـــافية وغروبهـــا صـــفراء كـــالوَرْس

يدخل في الشعر بأن قائله لم يرد بيان المظاهر الطبيعية حين طلوع الشمس وغروبها ولكن يريد بيان فناء الإنسان على مر الزمان. وإن تكلّم جغرافي في طلوع الشمس وغروبها، وبين سبب احمرارها حين الطلوع واصفرارها حين الغروب، وفصّل القول في هذا تفصيلاً لم يدخل كلامه في دائرة الشعر، لانفصاله عن الإنسان عاطفته وخياله.

ثم انظر هذه الأمثلة:

قول زهير:

ومهما تكنْ عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تُعلَم
ومن يكُ ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يُستغن عنه ويُذمَم

وقول عنترة:

وإذا صحوتُ فما أقصر عن ندًى وكما علمتِ شمائلي وتكرُمي

وقول أبي الطيب:

وإذا كانت النفوس كباراً تَعِبت في مرادها الأجسام

تجد في هذه الأمثلة كلها بيان حقائق نفسية واجتماعية لم تخلقها العاطفة والخيال ولكنها متصلة بعاطفة الإنسان مؤثرة في نفسه وإن لم يبيّن هذا الاتصال وهذا التأثير في الكلام.

ثم انظر في قول بشار:

فراحـوا فريـقٌ فـي الأسـار، ومثلُـه غريـق، ومثـلٌ لاذ بـالبحر هاربُـه

وقول ابن المقفع:

أبذل لصديقك دمك ومالك، ولمعرفتك رِفدك ومحضَرك، وللعامة بشرك وتحنّنك، واضنَنْ بدينك وعرضك عن كل أحد.

وهذه القصة:

دخل أبو العيناء على أبي الصقر فقال له: ما أخّرك عنّا؟

قال: سُرق حماري. قال: وكيف سرِق؟ قال: لم أكن مع اللص فأخبرك.

قال: فلم لَم تأتنا على غيره؟ قال: قَعَد بي عن الشراء قلةُ يساري. وكرهت ذلّة المُكاري، ومنّة العواري.

لا تجد في هذه الأمثلة إلا أموراً كشف عنها القائل إخباراً أو طلبًا وهي، على هذا، بيان جيّد ذو أثر في النفس، دعوةً إلى الخير، أو روعة بالحجة القوية والتصوير المبين.

وهذه أمثلة أخرى:

قول عنترة في القصيدة التي فيها البيت الذي أثبتناه آنفًا:

ولقـد ذكرتـك والرمـاح كأنهـا أشـطانُ بئـر فـي لَبـان الأدهـم
ولقـد ذكرتـك والرمـاح نواهـل منّي وبيضُ الهند تقطر من دمي
فـوددت تقبيـل السـيوف لأنهـا لمعـت كبـارق ثغـرك المتبـسم

وقول بشار في القصيدة التي منها البيت الذي مثّلْنا به آنفًا:

وجيش كجنح الليل يزحف بالحصى ... وبالشّوك والخَطّي، حمرٌ ثعالبه
برزنا له والشمسُ في حجر أمها ... تطالعنا والظّل لم يجر ذائبه
بضرب يذوق الموتَ مَن ذاق طعمَه ... وتدرك من نجّى الفِرارُ مثالَبه

وقول أبي الطيب:

وقد تمنّوا غداةَ الدرب في لَجَب ... أن يُبصروك فلما أبصروك عَموا
صدمتهم بخميس أنت غرته ... وسمهريته في وجهه غَمم
فكان أثبتَ ما فيهم جسومُهم ... يسقطن حولك، والأرواح تنهزم

فالتصوير في هذه الأمثلة أروع والعاطفة فيها أبين والخيال فيها عجيب. فهي أقرب إلى مركز الشعر من الأمثلة السابقة وكلُّ شعرٌ أو نثر بليغ.

***

ربما يكون التأثير بغير تخييل، ولا تبيين للعاطفة، ولكن بإثارة العاطفة أو التأثير في النفس بالصورة أو القصة.

انظر قول مجنون ليلى:

وأخرج من بين الجُلوس لعلني ... أحدّث عنك النفس، يا ليلَ، خاليا
وإني لأستغفي وما بي غفوةٌ ... لعل خيالاً منك يلقى خياليا

فهو لم يقل أن محب مُوَلّه، ولا شكا تبريح العشق به. ولعله وصف حقيقة ليس للخيال فيها عمل. ولكنه دلّ بهذه الحركات على ما وراءها من حب وشغف وولَه.

وكذلك قول ذي الرمة:

عيشةَ مالي حيلةٌ غير أنني ... بلَقط الحصى، والخَطِّ في الترب مُولَع
أخطّ وأمحو الخط ثم أعيده ... بكفّي والغربانُ في الدار وُقّع

فهو لم يزد على أن وصف حالاً تقع كثيراً في البادية. وربما يعانيها كثير ممن لا يستطيعون الإبانة عنها بالشعر، ولكنه دلّ بهذا الوصف على ما في نفسه، كما يدل الوجه البواجم، والطرف الساجم، والثغر الباسم. وهكذا يطّرد القول في هذا الشأن، وتكثر الأمثلة إلى غير نهاية.

ويؤثر عن أبي العلاء أنه قال: أبو تمام والمتنبي حكيمان، وإنما الشاعر البحتري.

وتأويل هذا أن شعر البحتري أدخل في العاطفة وألصق بالوجدان من شعر أبي تمام والمتنبي. فجانب العقل في شعرهما أبين منه في شعر الوليد، والعاطفة في شعرهما لا تبلغ مبلغها في شعره، ويبقى للحكمة قدرها في شعرهما.

ولا ريب أن أبا تمام والمتنبي شاعران كبيران وأبو العلاء المعري أول من يعترف بشعر أبي الطيب، ولكن تأويل كلام المعري ما قلت.

ويمكن أن يقال على نسق ما قلت آنفًا: إن شعر أبي عبادة أقرب إلى مركز الدائرة الشعرية من شعر أبي تمام وأبي الطيب.

اختلاف التأثير باختلاف الموضوع:

فموضوعات الأدب تختلف اتصالاً بالنفس الإنسانية فتختلف تأثيراً فيها. يختلف تأثير الشاعر والكاتب باختلاف الموضوع. فالشاعر الذي يعالج موضوعًا شديد الاتصال بعواطف الإنسان كالرثاء، يؤثر في النفوس أكثر ممن يعالج موضوعاً آخر كالوصف، وإن كان بيان الواصف أقوى وأوضح من بيان الراثي.

فالشاعر الذي يعالج الموضوعات التي لا تثير حزن الإنسان ولا طربه، ثم يجيد فيها ويروع بها، هو في أكثر الأحيان أشعر ممن يؤثر في الناس بمعالجة الموضوع الذي هو ألصق بالعاطفة، وأكثر إثارة للنفس. فينبغي أن يقدر هذا قدره حين النظر في الشعر، والموازنة بين الشعراء. والذين يعالجون الهزل والفكاهة في الشعر، أو يتناولون موضوع الشهوات فيلمسون مواضع الحساسية في نفس الإنسان، هؤلاء يؤثرون بالموضوع أكثر مما يؤثرون بصنعة البيان.

فأصحاب الأدب الذي يسمى «الأدب المكشوف» لا يثيرون الناس ببلاغتهم. ولكن بموضوعهم. وهذه طريقة يسيرة، ومتاع رخيص للتلبيس على الناس وتزيين الشعر بإحساسهم لا ببلاغة الشاعر.

إن أصحاب الأدب المكشوف يصفون أموراً وأحوالاً إن وصفها متكلم عيي، في غير صناعة من النظم والنثر- وجد من يُصغون إليه ويعجبون بقوله، ويطربون به. فكيف إذا مسها الشاعر بخياله وتصويره وحلاّها بالوزن والقافية؟!

في الموضوعات جليل وحقير، وجميل وقبيح، وجدّ وهزل، ونافع وضار، ومصلح ومفسد. ولست أعرض هنا لنظريات النقاد في وصل الأدب بالأخلاق وفصله عنها. فليس هذا موضعه؛ ولكن أقول إن الموضوعات التي يعالجها شاعر لها دخل في تأثيره في النفوس، مع اختلاف النفوس ونزعاتها، وتفاوت هِمَمها ومطالبها.

وفي موضوعات الشعر مألوف مطروق ذلله الشعراء، وألف الناس معانيه وصوره وعباراته. وفيها الغُفل الذي لم يصقله الشعر، والأنُف الذي لم يسبق إليه شاعر، وفيها ما قلّ السابقون إليه.

والموضوع الأنُفُ لا يذلله إلا شاعر مبتكر مخترع متصرف في التصوير والتعبير، هو يدرك المعاني، وهو يصوّرها، وهو يتحيّل للإبانة عنها ويتلطف. ولعلّ الناس يتلقونه بالاستغراب، أو يعدونه غامضًا بعيد المعنى، فإن كثيراً من معاني الشعر في الموضوع المطروق المعتاد- يعين على فهمها الإلْف والتعوّد وإن قصّر اللفظ عنها؛ فالسامع والقارئ يعرفان أن الشعراء في مثل هذا الموضع يقصدون على هذا المعنى، وكثيراً ما يُفهم المعنى قبل تمام عبارته. وكثيراً ما اعترض النقاد على شاعر بأنه لم يجر على ما تعوّد الشعراء في هذا المقام، ولم يسلك مسلكهم.

وليس الأمر كذلك في شاعر معتدّ بنفسه يهجم على الموضوع الغريب والمعنى البعيد، ويطوّع له الألفاظ، ويبين عنه بحسن تعبيره ولطف تصرفه.

فليقدَّر هذا في الموازنة بين الشعراء كذلك.

اختلاف الإدراك في الشيء الواحد:

ثم إدراك الناس مختلف فيما يعرض لهم من المرائي والأفكار، وفيما يفكرون فيه من الحسيات والمعنويات. وفي هذا يمتاز الشاعر والكاتب من غيرهما، فنظرة الشاعر إلى شيء تنفذ على معان خفية، وتصل إلى معان أخرى متصلة به، لا يدركها من لم يُؤتَ موهبة الشعر، والشعراء فيما بينهم في هذا مختلفون؛ يختلفون في النفاذ من الظواهر إلى البواطن، وفي سَلسلة المعاني بعضها من بعض.

يرى إنسان غرابًا يزقّ فرخيه في عشه فلا يرى غير الغراب والفرخين والعش، وينظر آخر فيرى ما في فعل الغراب من العناء والكدّ والإيثار، ويفكر كيف بنى الغراب عشه محكمًا في مهب الرياح، وكيف طلب الرزق بين الآفات والمهالك فرَجع به إلى فرخيه، ولعل فكره يمتد إلى قياس هذا الطائر بالإنسان، وإلى ما سلّط على الطير من الناس وهلم جرًا[1].

وأضرب مثلا آخر: حمَّالا شيخًا ضريراً يقوده صبي وقد انحنى ظهره تحت حمله رأيته في مدينة بغداد. من الناس من يرى الحمال الضرير فيشفق عليه فحسب، ومنهم من يثير فيه هذا المرأى معاني شتى وينفذ فكره إلى ما وراء هذا المنظر من ضرورات اضطرت هذا الشيخ الضرير

(١) انظر ديوان المثاني للمؤلف.

إلى الحمل، ويتصور ما يعتلج في نفسه من آلام وهو يفكر في عيشه بين ضرورات قاهرة وشيخوخة وضرارة جديرتين بالراحة، ويتصل فكره بنظام الجماعة التي وكلت هذا الرجل إلى نفسه، وقسوة الناس، وذهاب الرحمة والمروءة من نفوسهم وهلم جرّا.

ومثل آخر: زهرة ناضرة مشرفة على جدول لا يرى فيها البستاني إلا زهرة قريبة من الماء، ويرى فيها راء آخر نضرة الحياة والشباب ويمتد فكره إلى ما وراء هذه النضرة فيتخيل ذبولها وسقوطها ويرى في صورتها التي تبدو في الماء وتخفى صور الآمال الكاذبة، والخيالات الذاهبة، ويستطيع أن يكتب مقالا عنوانه «زهرة على جدول» أو ينظم أبياتًا كهذه:

يا زهرةً في ضِفاف الماء ناضرةً ... يهتزّ فيها شبابٌ جدُّ مفتون
وللنسيم على أوراقها عَبَثٌ ... يبيّن الحسنُ فيه كلَّ مكنون
تطالع الماءَ تبغي فيه صورتَها ... تردّها الريح عنه ردّ مغبون
ويُنفِذ الدهر فيها حكمه فإذا ... شتّى الوُرَيقات بين الماء والطين
أين الشباب الذي راقت نضارتُه ... ورفرفت فوقه أحلام مجنون؟
أنضرةُ الزهر لم تَثبت لناظرها ... أم صورةُ الماء بين الحين والحين

وهكذا يستطيع كاتب أن يوالي الأمثلة في هذا العدد ليبين كيف يتفاوت إدراك الناس، وكيف ينفذ البيان البليغ إلى بواطن الأشياء، وكيف يفسّر المرأى المحدود أو الفكرة الصغيرة تفسيراً يبين عما لا يخطر على بال من لم يُؤتَ النظر الثاقب والطبع الشاعر.

وفي هذا، في الحقن يمتاز الشعراء والكتاب من غيرهم، ويمتازون فيما بينهم، ويرقى بعضهم فوق بعض درجات.

٢

الركن الثاني التصوير

الشاعر يدرك حقائق كثيرة في هذا العالم، حقائق نفسية أو آفاقية ويعبّر عنها كما هي، أو يصوّرها بخياله صُوراً شتّى. وهذه الصور معان يقصد إليها الشاعر، وهي مادة شعره وموضع ابتكاره وتصرفه. فلا تحسبن أنها ليست إلا وسائل لبيان معنى أصيل عناه الشاعر. فهي حينًا تشارك المعنى الأصيل في عناية الشاعر واحتفاله، وحينًا تنال من قصد الشاعر واهتمامه النصيب الأوفر، وحينًا تستأثر بقصد الشاعر كله فلا يعني إلا بهذه الصورة المتخيلة.

وأضرب مثلا قول بشار:

برزنا له والشمسُ في حجر أمها تطالعنا والطل لم يجر ذائبه

أراد الشاعر أن يقول: برزنا للقاء عدوّنا حين شروق الشمس فقال: والشمس في حجر أمها تطالعنا. فهذه الصورة التي تخيّلها للشمس وهي في الأفق كالوليد في حجر أمه، وهي تطالعهم كما يطالع الطفل شيئاً كبيراً رائعاً يستبدّ بنظره، هذه الصورة أبلغ أثراً في نفس الشاعر والقارئ.

ومثل آخر قول مسلم بن الوليد:

وطار في إثر من طار الفِرارُ به خوفٌ يعارضه في كل أخدود

المعنى الأصيل هنا أن جند العدوّ فروا خائفين. فكلما رأى أحدهم أخدوداً أشفق أن يكون فيه كمين.

فانظر كيف صوّر هذا في طراد كما يطرد الصقر الحمامة. فهذا طائرٌ خوفًا، والخوف طائر وراءه. وكلما رأى أخدوداً اعترض الخوف طريقه فخيل إليه أن به كمينًا.

فالمعنى الأصيل أفاده الكلام، وكأنه أفاده عرضًا، وشُغل السامع والقارئ بهذه الصورة العجيبة المخيفة.

وتأمل في قول مسلم أيضًا:

ومَجهَلٍ كاطّراد السيف محتجز ... عن الأدلاّء مَسجورِ الصياخيد
تمشي الرياح به حَسْرَي مَوَلَّهة ... حَيرَى تلوذ بأكناف الجلاميد

فإن يكن قبل الصورة التي في البيت الثاني معنى أصيل فهو اضطراب الرياح في هذا المجهل وحيرتها فيه، وجائز ألا يكون الشاعر قصد معنى غير هذه الصورة التي تخيّلها. تخيل الرياح في هذا المجهل المشتعل المتشابه ضالةً طريقها حائرة، جازعة من حرّه تلوذ بجوانب الصخور تتقي بظلالها مس الشمس أو تستريح من الكلال والضلال.

وقول أبي الطيب الذي مرّ آنفًا:

صدمتَهم بخميس أنت غرَّتُه ... وسمهريَّتُه في وجهه غَمَم

إن يكن الشاعر قصد إلى الدلالة على تقدم سيف الدولة الجيش، وعلى كثرة الرماح- ولعله لم يبال بهذين- فلا ريب أن همّه الأول كان

إظهار هذه الصورة الرائعة التي تمثّل الجيش وجهًا غرَّتُه سيف الدولة، ورماحه غمَم في هذا الوجه. كالوجه الأغمّ يكثر الشعر على جبهته.

وهكذا تجد هذه الصورَ الشعرية لها مكانة في نفس الشاعر والسامع والقارئ مع المعنى الأصيل، أولها المكانة الأولى، أو قصد إليها وحدها الشاعر، ولم يبال بمعنى غيرها.

ولست في حاجة إلى موالاة الأمثال، وتكثير الشواهد في هذا الشأن.

البلاغة في المعاني أو الألفاظ:

ولا أعرض هنا للموضوع الذي طال فيه الجدال بين بعض الأدباء في القديم والحديث. وهو أن بلاغة الكلام في لفظه أو معناه، لا أجد هذه المقدمة القصيرة التي أقدّمها قبل الكلام في شعر أبي الطيب، تقتضي الكلام في هذا الموضوع، ولا أراها تتسع له.

وحسبي أن أقول: إن أكبر ظني أن الذين قالوا إن البلاغة في الألفاظ عدّوا من الألفاظ هذه الصور الشعرية التي ذكرت. حسبوا ما عدا المعنى الأصلي الغُفْل، من قبيل الألفاظ فقالوا إن بلاغة الكلام في اللفظ. وإلاّ فكيف تستّى لهم أن يدّعوا هذه الدعوى فيقطعوا الكلام عن معانيه، ويقوّموه بألفاظه.

يقول ابن خلدون في المقدمة:

«فالمعاني موجودة عند كل واحد، وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى. فلا تحتاج إلى صناعة. وتأليفُ الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه، وهو بمثابة القوالب للمعاني. فكما أن الأواني التي يُغتَرف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدَف والزجاج والخزَف، والماءُ واحدٌ في نفسه، وتختلف الجودةُ في الأواني المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء؛ كذلك جودةُ اللغة وبلاغتُها في الاستعمال، تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه باعتبار تطبيقه على المقاصد، والمعاني واحدةٌ في نفسها».

لا نقبل قول ابن خلدون إنّ المعاني موجودة عند كل واحد ...؛ فالناس متفاوتون في إدراك المعاني تفاوتًا لا يُحدّ. ثم لا نقبل أن جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال والمعاني واحدة في نفسها إلاّ أن يكون ابن خلدون قد جعل الصور الشعرية التي يفتنّ فيها الشاعر من قسم الألفاظ، وقصر المعاني على المعاني الأصيلة الغُفل. فإذا استوى اثنان في إدراك معنى امتاز أحدهما عن الآخر بالتصوير الذي يعدّه ابن خلدون ومن ذَهَب مذهبه، من تأليف الكلام لا من المعاني.

لا يستقيم هذا الكلام إلاّ على هذا التأويل.

٣

الركن الثالث العبارة

يبقى من أركان البيان اللفظ بمعناه الحق، أي الأصوات التي يستعين بها الإنسان على الإعراب عما في نفسه، العبارة التي يعبر بها عن المعنى الأصيل الساذج أو المعاني الشعرية التي سميتها الصور آنفاً. يبقى من أركان البيان بعد ما قدمت الركن الذي يتغير بنقل الكلام من لغة إلى أخرى لا المعاني والصور التي يمكن المحافظة عليها في اللغات المختلفة.

لكل لغة ألفاظها، ولكل لغة تركيباتها وأساليبها. ولا يستقيم البيان إلاّ بأن تسير الألفاظ مفردة ومركّبة على سنن لغتها، وبأن تسلم من الحوشية ومن التعقيد ويتوافر حظ الكلام من الدقائق التي يدل عليها نظم الكلام في اللغة التي يُنشأ فيها. ولا ريب أنّ لمفردات الكلام ومركباته وتأليفه نصيباً من بلاغته كبيراً.

وقد تبين لي هذا، وانجلى دون حجاب حين قِستُ شعر شاعر واحد في لغتين هو في إحداهما أمكن منه في الأخرى. فعند الشاعر العلم بالحقائق، والقدرة على البيان، والمهارة في التصوير، لا تختلف فيما ينظم بهذه اللغة أو تلك؛ ولكن خبرته باللغة وبصره بدقائقها ودربته عليها، تختلف باختلاف اللغتين. فهذا ثَبَتُ أن للألفاظ والنظم مكانتهما في البلاغة.

قرأت شعر الشيخ سعدي الشيرازي بالفارسية. وقرأت قصائد له باللغة العربية فرأيت اختلاف الشعر رصانة وانسجامًا وجمالاً وروعة. وكذلك كل من ينظم في لغتين هو أقدر في إحداهما، تجد في شعره دليل هذه الدعوى. وفي هذا الموضوع دقائق خفية، ومعان بعيدة لا يدركها إلاّ النظر الثاقب والذوق الدرّاك.

وبعد فالكلام كله ألفاظ ومعانيه الأصيلة، وصوره الشعرية، وحقائقه ومجازاته وألفاظه وأساليبه- كل أولئك نغمات في لحن واحد، إن اختلت إحداها وقع الخلل في اللحن كله.

فالمعنى القيِّم، إن لم يُحسن تبيينه، ولم يجوَّد تصويره، أو أُحسن تبيينه وأجيد تصويره ولم يُحسَن التعبير عنه بخلل في اللفظ أو التركيب أو التأليف، لم يقع في البلاغة موقع القبول؛ بل البيت القيم الذي استوفى كل الأوصاف المعنوية أو اللفظية إن أنشده منشد فلحن فيه أو أخل بوزنه نفر السامع من الخلل الطارئ على لسان المنشد، وإن كان السامع عرف البيت من قبلُ وحفظه.

الكلام موسيقى مؤتلفة، وأنغام مجتمعة، يذهب الخلل في جانب منها بجمالها، ويشيع الشذوذ من أحد أجزائها في سائر الأجزاء.

والشاعر المفلق هو الذي تلتئم معانيه ومجازاته وألفاظه وأسلوبه وأوزانه وقوافيه التئام الموسيقى المحكمة، تحس جمالها، وتعترف

بروعتها، ولا تقول إن نبرة بعينها أو جرسًا واحداً أو نغمة مفردة- مصدرُ هذا الجمال، وتلك الروعة.

نظرات في شعر أبي الطيب

ننظر- بعد هذه المقدمة- في شعر هذا الشاعر لنرى الموضوعات التي آثرها واحتفل بها وافتنّ فيها أكثر من غيرها. وهي الموضوعات التي وافقت نفسه، ولاءمت همته وطموحه ...، ثم نرى كيف عالج هذه الموضوعات إيضاحاً وتصويراً وتعبيراً.

١

موضوعاته

عالج أبو الطيب موضوعات الشعر التي عالجها شعراء العرب، ولكنه آثر من بينها موضوعات برَّز فيها، وعُرف بها وعُرفت به. وقد ألمّ بها الشعراء ولم يستوعبوها استيعابه ولم يكلفوا بها كلَفه، ولا أجادوا إجادته.

وهي موضوعات ترجع في جملتها إلى القوة والإباء والطموح إلى المعالي، والإقدام والترفع عن الدنايا. كما ترجع إلى الحكمة الأخلاقية والاجتماعية.

الأمثال في شعره:

وهذا الشاعر لاعتداده بنفسه، وتعويله على رأيه، واقتداره على البيان والإيجاز، صاغ كثيراً من أقواله كلماتٍ جامعة وأجراها مجرى الأمثال في الحكم والأخلاق. كقوله:

مصائب قوم عند قوم فوائد وربما صحت الأجسام بالعلل

وخير جليس في الزمان كتاب ... وتأبى الطباع على الناقل
ولكنّ طبع النفس للنفس قائد ... إذا عظم المطلوب قلّ المساعد
أنا الغريق فما خوفي من البلل ... ليس التكحّل في العينين كالكَحَل

وقوله:

وكل امرئ يُولِي الجميلَ محبَّب ... وكل مكان ينبتُ العزَّ طيّب

***

من يَهُن يَسهل الهوانُ عليه ... ما لجُرح بميّت إيلام

وقوله:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ... وإن أنت أكرمتَ اللئيم تمرَّدا
ووضع النَّدى في موضع السيف بالعُلى ... مضرّ كوضع السيف في موضع الندى
وما قتل الأحرار كالعفو عنهمُ ... ومَن لك بالحرّ الذي يحفظ اليدا

وقد ألف الصاحب بن عباد- على أنه لم يكن من محبّي أبي الطيب- رسالة لفخر الدولة بن بويه جمع فيها من شعر الشاعر زهاء سبعين وثلاثمائة بيت تجري مجرى الأمثال، وقال في مقدمتها:

«وهذا الشاعر على تميّزه وبراعته وتبريزه في صنعته، له في الأمثال خصوصًا مذهب يسبق به أمثاله».

أدرك أبو الطيب الحكمة بفكره، وصاغها أمثالاً ببيانه فسارت في الأدب ثروة للمتأدبين ومدداً للمتمثلين.

***

أولع أبو الطيّب بهذه الموضوعات وهي في جملتها ترجع إلى الحكمة والحماسة فخصّ بها قصائد وكررها في قصائد المدح:

فالقصائد التي اختصّها بهذه الموضوعات، اثنتا عشرة قصيدة هي أحسن شعره بما كانت أدلّ على ما في نفسه إذ نظمها للإعراب عما يكنه لا مادحًا ولا هاجيًا وهي:

من قصائد الصبا:

كم قتيلٍ كما قتلتُ شهيدِ ... لبياض الطُّلَى ووَرد الخدود

***

قفا تريا وَدْفى فهاتا المخايلُ ... ولا تخشيا خُلْفًا لما أنا قائل

***

ضيفٌ ألَمَّ برأسي غيرَ محتشم ... السيف أحسن فعلا منه باللِّمَم

***

عَذيري من عَذارَى من أمور ... سكنَّ جوانحي بدَلَ الخدور

***

ألا لا أُرى الأحداثَ مدحًا ولا ذمّا ... فما بطشها جهلاً ولا كفها حِلما

***

إذا غامرتَ في شرفٍ مَروم ... فلا تَقنع بما دون النجوم

ومن القصائد السيفية:

واحرَّ قلباه ممن قَلبُه شَبِمُ ... ومن بجسمي وحالي عِنده سَقَم

ومن القصائد المصرية:

بـــمَ التعلّـــل؟ لا أهـــلٌ ولا وطـــنٌ ولا نـــديمٌ ولا كـــأسٌ ولا سَـــكَن

***

صـــحبَ النـــاسُ قبلَنـــا ذا الزمانـــا وعنـــاهم مـــن أمـــره مـــا عنانـــا

***

مَلومُكمـــا يَجـــلّ عـــن المـــلام ووقْـــع فَعالـــه فـــوق الكـــلام

***

ألا كـــل ماشـــية الخَيْزلَـــي فـــدا كـــل ماشـــية الهَيْـــدَبي

ومن القصائد العراقية:

حَتّام نحن نُساري النجم في الظُّلم ؟ ومـا سُـراه علـى خُـف ولا قَـدم

هذه قصائد نظمها الشاعر للإبانة عما في فؤاده لم يقصد فيها إلى مدح أو هجاء أو رِثاء.

وقد ضمنت قصائد أخرى نظمت في موضوع من موضوعات الشعر المعتادة كثيراً من الحكم والعبر والحماسة والفخر.

فمن قصائد الشباب:

فـــؤاد مـــا تـــسليه المُـــدام وعمـــر مثـــل مـــا يهَـــب اللئـــام

والقصيدة:

لا افتخـــارٌ إلا لمـــن لا يُـــضامُ مـــدرك أو محـــارب لا ينـــام

التي يقول فيها:

واحتمـــال الأذى ورؤيـــة جانيـــه غِـــذاء تَـــضْوَى بـــه الأجـــسام

من يَهُن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميّت إيلام
ذلَّ من يغبط الذليل بعيش ربَّ عيش أخفُّ منه الحِمام

والقصيدة:

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر وحيداً. وما قولي كذا ومعي الصبر؟

والقصيدة:

أقلُّ فعالي بله أكثرِه مجد [1] وذا الجِدّ منه نلتُ أم لم أنَلْ جَد

بهذه القصيدة وأمثالها يسمو أبو الطيب في موضوعه، وفي اعتزازه بالنفس، وإشادته بالكرامة، ودعوته إلى الحرية والعزة.

وإذا أردنا أن ننشِّئ شباب العرب على الأخلاق العالية، والشيم العزيزة التي تسمو بهم عن الدنايا، وتثبّتهم على زلازل هذا العصر فبمثل هذا الشعر؛ تستحكم أخلاقهم، وتستحصد عزائمهم، ومثل أبي الطيب فليكن القدوة.

***

في هذه الموضوعات وهذه المعاني وما يتصل بها، ويمت إليها يسمو هذا الشاعر.

فهو يجيد الكلام في الفخر والحماسة وفي وصف الحرب وعُدَدها من السلاح والخيل ووصف البيداء ومشقاتها وأهوالها ووصف الصيد، وهو

(١) كسر الراء في أكثره هو اختيار أبي الطيب. انظر طبعتي من الديوان.

ضرب من الحرب، ويعجب بالفتوة والقوة، وبالإقدام والغلب، وبالخشونة واقتحام المكاره، ومعاناة الشدائد.

٢

معانيه وصوره

أعرض هنا لبراعة أبي الطيب في إدراك المعاني وتصويرها، صلة بما قدمت في هذا الفصل.

ولا أستوعب الموضوعات التي شعر فيها أبو الطيب؛ بل أكتفي بموضوعين: موضوع يلائم طبعه وخلقه وقد برّز فيه وشهر به، وموضوع لا يجانس ما أثر من سيرته وطبعه. الأول الوصف عامة وفيه وصف الحرب، والثاني الغزل.

(أ) الوصف:

الوصف، ولا سيما وصف الحسيّات، من أصعب موضوعات البيان. الموصوف معروف بهيئته وأشكاله وألوانه، وعلى الواصف أن يبين عنه إبانة تمثله لمن لم يره. فهو ليس طليقًا يسير مع خياله، ويتجنب وعر الكلام إلى سهله، ويفزع من ضيقه إلى سعته، بل خياله وصنعته في حدود من هذه الصورة الماثلة.

في الوصف يتفاوت الشعراء؛ يتفاوتون في إدراك دقائق الموصوف الحسيّة، ثم إدراك ما تبعثه في النفس من خيال وعاطفة سرور وحزن

وعبرة، كما أبدع البحتري في وصف إيوان كسرى في القصيدة السينية النابهة. فأجال طرفه وقلبَه في صور الإيوان، وغِبَر الزمان.

لا بد للواصف من حس مرهف، وخيال واسع، وفكر منظِّم، وبيان قوي.

وأبو الطيب يساير كبار الشعراء في الوصف حينًا، ويتخلف عنهم حينًا، حاشا وصف الحرب وما يتصل بها. وقد أخذ عليه الواحدي تخلّفه في قطع عدَّها عليه مثل أبياته في وصف مجلس الورد عند ابن العميد، وأبياته في وصف رسالة جاءت من ابن العميد إلى أبي الطيب.

واعتذر العكبري عن أبي الطيب فيما آخذه به الواحدي بأن هذه المآخذ كلها في أبيات أنشئت ارتجالاً ولو لم تثبت في الديوان لكان خيراً للشاعر.

وقد عُرف الأعراب بإجادة الوصف، وقوة الإبانة عما يرون؛ لحدة إحساسهم وسلامة فطرتهم ولحاجتهم إلى معرفة ما يحيط بهم معرفة تمكنهم من سلوك السبل، وتخلّل الشعاب والاهتداء إلى المواطن، وتتبع المياه والمراعي، وتجنب المخاطر.

وفي كتب الأدب من أوصافهم العجيب البليغ. وأكتفي بهذه القصة: روى أبو هلال العسكري في ديان المعاني أن هشام بن عبد الملك قال لأعرابيّ لا يقرأ: انظر الميل، يعني كم على الحجر من عدد الأميال؟ فنظر

ثم عاد فقال: «رأيت شيئًا كرأس المِحجَن، متصلاً بحلقة صغيرة، تتبعها ثلاث كأطباء الكلبة تُفضي إلى هَنة كأنها قَطاة بلا منقار».

ففهم هشام أنها خمسة.

وأبو الطيب- وهو يكاد يكون أعرابيًا- من أدق الشعراء إدراكًا للموصوف وأقدرهم إبانة عنه. وثبتُ هذا في أوصافه الكثيرة، وصف بحيرة طبريّة في القصيدة:

أحقّ عافٍ بدمعك الهِممُ أحدثُ شيءٍ عهداً بها القدم

ووصف الأسد في قصيدة بدر بن عمار:

في الخد أن عزَم الخليط رحيلاً مَطرٌ تزيد به الخدودُ مُحولا

ووصف السيف في قصيدة الروزباري:

كفرندي فرند سيف الجُراز لذةُ العين عُدّة للبراز

وفي قصيدة ابن العميد الدالية، ووصف الصيد في طرديات أبي علي الأوراجي وابن طُغُج وعضد الدولة. ووصف خيمة سيف الدولة في القصيدة:

وفاؤكما كالربع، أشجاه طاسمه بأن تُسعدا، والدمع أشفاه ساجمه

ولا أتعرض لوصف الجيش والحرب فأمره فيهما بيّن.

قال يصف السيف:

كفرندي فرندُ سيف الجُراز لذةُ العين عُدّةٌ للبراز

تحسب الماء خَطّ في لهب النار ... أدقّ الخطوط في الأحراز
كلما رمتَ لونه منعَ الناظرَ ... موجٌ كأنه منك هازى
ودقيق قذى الهباء أنيق ... متوالٍ في مستو هَزهاز
وردَ الماء فالجوانبُ قَدراً ... شربت، والتي تليها جَوازي
حملته حمائلُ الدهر حتى ... هي محتاجة إلى خَرّاز

فاقرن هذه القطعة بقطعة البحتري:

قد جدبت بالطرف الجواد فثنّه ... لأخيك من أُدَد أبيك بمُنصل
يتناول الروح البعيد منالَه ... عفواً ويفتح في الفضاء المقفل

أو بقطعة ابن الرومي:

خير ما استعصمت به الكفّ عضب ... ذكَر حدّه، أنيث المَهز
ما تأملتَه بعينيك إلا ... أرعِشت صفحتاه من غير هز

نجد لأبيات أبي الطيب فضلاً عليهما.

وقال في وصف: كلب صيد:

* فحَلّ كلاّبى وِثاق الأحبُل *

عن أشدقٍ مُسَوجَر مُسَلسل ... أقبّ ساطٍ شَرِس شَمزدل
منها إذا يُثغَ له لا يَغزَل ... مؤجَّد الفقرة رِخو المفصل
له. إذا أدبر، لحظ المقبل ... كأنه ينظر من سجنجل
يعدو إذا أحزِن عدوَ المسهل ... إذا تلا جاء المدى وقد تُلى
يُقعى جلوسَ البدويّ المصطلى ... بأربع مجدولة لم تُجدَل
فُثلُ الأيادي رَبِذاتُ الأرجل ... آثارها أمثالها في الجندل
يكاد في الوثب من التفتّل ... يجمع بين متنه والكلكل

وبين أعلاه وبين الأسفل ... شبيه وسميّ الحِضار بالوَلي
كأنه مضبَّر من جَروَل ... موثَّقٌ على رماح ذُبَّل
ذي ذَنَب أجردَ غيرِ أعزل ... يخطّ في الأرض حساب الجُمَّل
كأنه من جسمه بمعزل ... لو كان يُبلى السوط تحريكٌ بَلى
نَيل المنى وحكم نفس المرسل ... وعُقلة الظبي وحَتف التفُّل

وكذلك طردية عضد الدولة التي أولها:

ما أجدر الأيام والليالي ... بأن تقول ما لَه ومالي ؟

من أبلغ ما قيل في وصف الصيد. فليرجع إليها القارئ في الديوان.

ومن دقته في الإدراك وتلطفه في الوصف ميله إلى التشبيهات اللطيفة المأخوذة من حروف الهجاء وأشباهها كقوله:

وانثنى عنّي الرديني حتى ... دار دورَ الحروف في هَوّاز

أي كما تدور الحروف في «هَوّز» من الحلق إلى الشفة إلى الأسنان.

أولَ حرف من اسمه كتبتْ ... سنابك الخيل في الجلاميد

يعني أول حرف من اسم سيف الدولة وهو «على» كتبته سنابك الخيل في الصخر. والسنابك تؤثر في الأرض كرأس الحرف ع.

ورُبَّ جوابٍ عن كتابٍ بعثته ... وعنوانُه للناظرين قَتام
حروف هجاء الناس فيه ثلاثة ... جوادُ ورمح ذابلٌ وحُسام

***

نتاج رأيك في وقت على عجَل ... كلفظ حرف وعاه سامع فهم

***

قُشَير وَبلعَجلان فيها خفيَّة كراءين في ألفاظِ ألثغَ ناطق

***

وكل فتى للحرب فوق جبينه من الضرب سَطرٌ بالأسنة مُعجَم

***

دون التعانق ناحلين كشكلتي نصب أدقّهما وضم الشاكل

***

وأما وصف الحرب فقد أسلفت كلام ابن الأثير في هذا في فصل آراء النقاد. وقلت في فصل سيف الدولة إن هذا المقدار من الشعر الحماسي في هذه البلاغة لا يعرف لشاعر آخر.

وأبو الطيب في طبعه الحماسة، وفي سجيته الطرب للحرب والضرب والغلَب، والإعجاب بالقوة والعزَّة والمنَعة وما إليها.

فكان- لا جرم- مبرّزاً في كل ما هو من هذه الأمور، وكل ما يمتّ إليها. وحسبي أن أثبت أمثلة من حماسياته، وهي كثيرة. ولا أطيل الكلام بالوقوف عند كل مثال، والإنابة عما فيه من قوة وروعة، والإشادة بما فيه من حسن تصوير، وجودة تعبير، بل أدع هذا كله لتأمل القارئ وتقديره.

شهد أبو الطيب بعض الوقعات فصوّر ما رآه وما شعر به ووُصِف له بعضها فوصف عن سماع، وصاغها بما في طبعه من حماسة وما في خياله وبيانه من سعة وقوة. وأمثّل بثلاث قصائد:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

***

طِـــوال قَنًـــا تُطاعِنهـــا، قِـــصار وقَطـرك فـي نَـدًى ووغًـى بحـار

***

عُقبى اليمين على عُقبى الوغى ندم مـاذا يزيـدك فـي إقـدامكَ القسم؟

تأمل في هذه الأبيات من القصيدة الأولى وهي تصف حرب سيف الدولة والروم:

أتـوك يجـرّون الحديـد كـأنهم سـرَوا بجيـادٍ مـا لَهـنّ قـوائم
إذا برَقـوا لـم تُعـرفِ البـيضُ مـنهم ثيـابُهمُ مـن مثلهـا والعمـائم
خميسٌ بشرق الأرض والغرب زَحفُه وفـي أُذُن الجَـوزاء منـه زمـازم
تجمّـع فيـه كـلُّ لِـسْنٍ وأمّـة فمـا تُفهِـم الحُـدَّاثَ إلاّ التـراجم
فللـه وقـتٌ ذوّب الغـشَّ نـارُه فلـم يبـق إلاّ صـارم أو ضُـبارِم
تقطّـع مـا لا يُقطـع، البـيضُ والقنـا وفـرّ مـن الأبطـال مـن لا يـصادم
وقفتَ وما في الموت شك لواقف كأنـك فـي جَفـن الـردى وهـو نـائم
تمـرّ بـك الأبطـال كَلمَـى هزيمـةً ووجهـك وضـاح وثغـرك باسـم
ضـممتَ جناحيهم على القلب ضمَّةً تمـوت الخـوافى تحتهـا والقـوادم
بـضربٍ أتـى الهامـاتِ والنـصر غائـب وصـار إلـى اللّبّـات والنـصرُ قـادم

وهذه الأبيات ليست أجود من غيرها في القصيدة.

ويقول في القصيدة الثانية وهي تصف حرب بني كعب وغيرهم من الثائرين على سيف الدولة:

فأقبلهـا المـروجَ مُـسوّمات ضـوامَر لا هُـزالَ ولا شـيار
تُثيـر علـى سَـلَمْيةَ مُـسبَطرًّا تنـاكرُ تحتـه، لـولا الـشعار
عَجاجًـا تعثـر العِقبـانُ فيـه كـأن الجـوَّ وَغْـثٌ أو خبَـار

وظلّ الطعنُ في الخيلين خلسا ... كأن الموت بينهم اختصار
فلزّهم الطِّرادُ إلى قتال ... أحدُّ سلاحهم فيه الفِرار
مضوا متسابقي الأعضاء فيه ... لأرؤسهم بأرجلهم عِثار
يشلّهمُ بكلّ أقبّ نَهدٍ ... لفارسه على الخيل الخيار
وكلّ أصمّ يَعسل جانباه ... على الكعبين منه دم مُمار
يُغادرُ كلَّ ملتفت إليه ... ولبّتُه لثعلبه وِجارُ
إذا صرف النهارُ الضوءَ عنهم ... دجا ليلان: ليل والغبار
وإن جنح الظلام إنجاب عنهم ... أضاء المشرفيةُ والنهار

***

ومن القصيدة الثالثة وهي تصف حرب الروم:

فلم تُتم سَروج فتح ناظرها ... إلاّ وجيشُك في جفنيه مزدحم
والنقع يأخذ حَرّانا ويقعتَها ... والشمسُ تُسفر أحيانًا وتلتثم
سُحبٌ تمرذ بحِصن الران ممسكةً ... وما بها البخل لولا أنها نِقم
جيشٌ كأنك في أرض تطاوله ... فالأرض لا أَمَم والجيش لا أَمم
إذا مضى علَم منها بدا علم ... وإن مضى علم منه بدا علَم
وشُزّبٌ أحمت الشعري شكائمها ... ووسَّمتها على آنافها الحَكم
حتى وردن بسَمنين بُحيرتَها ... تنِشّ بالماء في أشداقها اللُّجم
وأصبحت بقُرَى هِنزيط جائلة ... ترعى الظُّبى في خصيبٍ نبتُه القِمم
فما تركن بها خُلداً له بصر تحت ... التراب ولا بازاً له قدم
ولا هزبراً له من درعه لِبَد ... ولا مَهاة لها من شبهها حَشم
ترمي على شفرات الباترات بهم ... مكامنُ الأرض والغيطانُ والأكم
وجاوزوا أرسَناسًا مُعصِمين به ... وكيف يعصِمهم ما ليس ينعصم
وما يصدّك عن بحر لهم سَعة ... وما يردّك عن طودٍ لهم شَمَم

ضربتَه بصدور الخيل حاملةً ... قومًا إذا تلفوا قُدْمًا فقد سلموا
تجفَّل الموجُ عن لَبّات خيلهم ... كما تجفَّلُ تحت الغارة النعم
عبرتَ تقدمهم فيه وفي بلد ... سُكانُها رِمم، مسكونها حُمم
وفي أكفهم النار التي عُبدت ... قبل المجوس إلى ذا اليوم تضطرم
هنديةٌ إن تُصغِر معشراً صَغُروا ... بحدّها، أو تعظم معشراً عظموا

***

وقد تمنّوا غداة الدرب في لجَب ... أن يبصروك فلما أبصروك عَموا
صدمتَهم بخميس أنت غُرّته ... وسَمهريتُه في وجهه غَمم
فكان أثبتَ ما فيهم جسومُهم ... يسقطن حولك والأرواح تنهزم
والأعوجيّة ملءُ الطرق خلفهمُ ... والمشرفيّة ملءُ اليوم فوقهم
إذا توافقت الضَرَبات صاعدةً ... توافقت قُلل في الجوّ تصطدم

***

(ب) الغزل:

أبادر فأعترف بأن أبا الطيب لم يكن غَزِلا، لم يكن رقيقاً يأسره الهوى، يخفق له قبله، ويسيل دمعه، ويغنّي لسانه.

وقد تجنب الشاعر الغزل في مطلع كثير من القصائد حَيْداً عن سنة الشعراء. وصرّح بلومهم على هذا إذا قال في مطلع قصيدة سيفية:

إذا كان مدح فالنسيب المقدّم ... أكلّ فصيح قال شعراً مُتيّم ؟

وفي القصيدة التي مطلعها:

مُنى كُنَّ لي أنّ البياض خِضاب ... فيخفى بتبيض القرون شباب

قال:

وما العشق إلا غِرَّةٌ وَطماعة ... يعرّض قلب نفسه فيُصاب
وغيرُ فؤادي للغواني رَمِيّة ... وغيرُ بَناني للزجاج رِكاب
تركنا لأطراف القنا كلَّ شهوة ... فليس لنا إلا بهنّ لِعاب

وفي القصيدة التي مطلعها:

بم التعلل لا أهل ولا وطن ... ولا نديم ولا كأس ولا سَكن

يقول:

مما أضرّ بأهل العشق أنهمُ ... هوُوا وما عرفوا الدنيا وما فطنوا
تفنى عيونُهم دمعًا وأنفسُهم ... في إثْر كلّ قبيح وجهُه حسَن
تحمّلوا حملتكم كلُّ ناجية ... فكلّ بينٍ عليّ اليوم مؤتَمن
ما في هوادجكم من مُقلتي عِوض ... إن مِت شوقًا ولا فيها لها ثمن

وقال في القصيدة التي مطلعها:

كدعواك كلٌّ يدّعي صحة العقل ... ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل
محبّ كنى بالبيض عن مرهفاته ... وبالحسن في أجسامهن عن الصقل
وبالسُّمر عن سُمر القنا غير أنني ... جناها أحبّائي وأطرافُها رُسلي
عدمتُ فؤاداً لم تبت فيه فضلةٌ ... لغير الثنايا الغرّ والحدَق النُّجل
فما حَرمتْ حَسناءُ بالهجر غبطةً ... ولا بلّغتها مَن شكا الهجر، بالوصل

***

ليس الشاعر في طبعه ونزوعه من أهل الغزل؛ ولكنه حينما أراد أن يتغزل تأسياً بالشعراء، استطاع أن يُجيد. وهذه أمثلة من غزله في شبابه تشهد بما ادعى:

لعبت بمشيته الشَّمولُ وغادرتْ ... صنما من الأصنام، لولا الروح
ما باله لاحظتُه فتضرّجت ... وجَناتُه، وفؤادي المجروح
ورمي، وما رمَتا يداه، فصابني ... سهمٌ يعذِّب والسهام تريح
قُرب المزار، ولا مزارَ وإنما ... يعدو الفؤاد فنلتقي ويروح
وفشت سرائرُنا إليك وشفَنا ... تعريضُنا فبدا لك التصريح
لما تقطعت الحمول تقطّعت ... نفسي أسى. وكأنهم طلوح
وجلا الوداعُ من الحبيب محاسنًا ... حُسنُ العزاء، وقد جُلين، قبيح
فيدٌ مسلّمة، وطرفٌ شاخص ... وحشا يذوب، ومدمع مسفوح
يجد الحَمام ولو كوجدي لانبرى ... شجرُ الأراك مع الحمام ينوح

ومن قصيدة في مدح الحسين الهمذاني:

أُسَرّ بتجديد الهوى ذكرَ ما مضى ... وإن كان لا يبقى له الحجر الصّلد
سُهادٌ أتانا منك في العين عندنا ... رقاد، قُلامٌّ رعى سِربُكم، وَرد
ممثَلة حتى كأن لم تفارقي ... وحتى كان اليأسَ من وصلك الوعد
وحتى تكادي تمسحين مدامعي ... ويعبَق في ثوبَيّ من ريحك النَدّ

ومن غزله في السيفيات:

لعينيك ما يلقى الفؤادُ وما لقي ... وللحبّ ما لم يبق مني وما بقى
وما كنتُ ممن يدخل العشقُ قلبه ... ولكنّ من يُبصر جفونكِ يعشق
وبين الرضى والسخط والقرب والنوى ... مجال لدمع المقلة المترقرق
وأحلى الهوى ما شك في الوصل ربُّه ... وفي الهجر فهو الدهَر يرجو ويتقى

وقوله:

لا تعذل المشتاق في أشواقه ... حتى يكون حشاك في أحشائه
إن القتيل مضرَّجًا بدموعه، ... مثلُ القتيل مضرَّجًا بدمائه

والعشقُ كالمعشوق يعذب قُربه ... للمبتلى، وينالُ من حَوبائه
لو قلتَ للدنف الحزين؛ فديتُه ... مما به، لأغرتَه بفِدائه

وقوله:

أيدري الربع أيَّ دم أراقا ... وأيَّ قلوب هذا الركب شاقا
لنا ولأهله أبداً قلوب ... تلاقى في جسوم ما تلاقى
وما عفَتِ الرياح له محلاً ... عفاه من حدا بهم وساقا
فليت هوى الأحبة كان عدلا ... فحمّل كل قلب ما أطاقا
نظرت إليهم والعين شَكرَى ... فصارت كلُّها للدمع ماقا
وقد أخذ التمامَ البدرُ فيهم ... وأعطاني من السُّقْم المُحاقا
وبين الفرع والقدمين نور ... يقود بلا أزمّتها النياقا
وطرفٌ إن سقى العشاقَ كأسًا ... بها نقص، سقانيها دهاقا
وخَصرٌ تثبت الأبصار فيه ... كأنّ عليه من حَدَق نطاقا

وانظر الغزل في هذه الأبيات:

أما في النجوم السارياتِ وغيرها ... لعيني على ضوء الصباح دليل ؟
ألم يرِ هذا الليل عينيك رؤيتي ... فتظهرَ فيه رقة ونحول ؟
لقيت بدرب القلة الفجر لقية ... شفت كبِدي، والليلُ فيه قتيل
ويومًا كأن الحسن فيه علامةٌ ... بعثتِ بها، والشمس منك رسول

يتبين بهذا أن الرجل مجيد في الغزل، متصرف فيه. ولولا طبعٌ شاعر، وبيان قادر ما أحسن هذا الإحسان في موضوع لا يميل طبعه إليه، ولا تخضع كبرياؤه له.

***

وفي غزل أبي الطيب أمور جديرة بالإثبات هنا:

الأول: أن الغزل لا ينسيه الكلف بذكر الحرب فهو يصف مَنَعه الحبيب وما يحيط به من شدائد وأهوال. يقول في قصيدة ابن طُغُج:

ديار اللواتي دارهن عزيزة ... بطولَى القنا يُحفظن لا بالتمائم

وفي بعض القصائد السيفية:

حبيب كأنّ الحسن كان يحبه ... فآثره أو جار في الحسن قاسمه
تحول رماح الخط دون سِبائه ... وتُسبَى له من كل حيّ كرائمه
ويُضحِي غُبار الخيل أدنى ستوره ... وآخرُها نشرُ الكِباء المُلازمه

***

وما شرَقي بالماءِ إلا تذكّراً ... لماء به أهل الحبيب نزول
يحرّمه لمع الأسنة فوقه ... فليس لظمآن إليه وصول

***

متى تَزُرْ قوم من تهوى مودتها ... لا يُتحفوك بغير البِيض والأسل

وفي قصيدة كافورية:

سوائرُ ربما سارت هوادجها ... منيعةً بين مطعون ومضروب
وربما وخَدت أيدي المطيّ بها ... على نجيع من الفرسان مصبوب

والثاني: أن الشاعر الهمام كلِف بالحرب حتى تغزل بها، وقد تقدم قوله:

مُحبّ كنى بالبيض عن مرهفاته ... وبالحسن في أجسامهن عن الصقل
وبالسُّمر عن سُمر القنا غير أنها ... جناها أحبائي وأطرافها رسلي

ويقول:

أعلى الممالك ما يُبنى على الأسل ... والطعن عند محبّيهن كالقُبَل
والطعن شزر والأرض واجفة ... كأنما في فؤادها وهَل
قد صبغت خدَّها الدماءُ كما ... يَصبُغ خَدّ الخريدة الخجَل

والثالث: تغزله بالأعرابيات، وتفضيلهن على الحضريات، والإعراب بهذا عما في طبعه من إيثار الطبيعة على الصنعة، والبداوة على الحضارة.

وقد بينت هذا في فصل «البداوة في طبعه وشعره» من قبل.

والرابع: مزج الغزل بالحزن والنظر في الدنيا والاعتبار بتغيرها.

قال في القصيدة التي بعث بها إلى سيف الدولة من العراق والتي مطلعها:

ما لنا كلّنا جَوٍ يا رسول ؟ ... أنا أهوى وقلبك المتبول
زوّدينا من حُسن وجهك ما دام ... فحسن الوجوه حالٌ تَحول
وصلينا نصلك هذه الد ... نيا فإن المُقام فيها قليل
من رآها بعينها شاقه القُطّا ... نُ فيها كما تشوقُ الحمول

وقال في القصيدة السيفية التي أولها:

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقى ... وللحب ما لم يَبْقِ منّي وما بقى
سقى الله أيام الصبا ما يُسرّها ... ويفعل فعل البابليّ المعتَّق

وهذا بيت في أبيات من الغزل كثيرة لا ينظر القارئ أن يعقبه هذا البيت:

إذا ما لبستَ الدهر مستمتعًا به تخرَّقتَ والملبوسُ لم يتخرق

ولكنها خطرة حزن، ولمحة عبرة أثناء الغزل. وفي القصيدة:

* ليالِيَّ بعد الظاعنين شكول *

يقول أثناء الغزل:

وما عشتُ من بعد الأحبّة سَلوةً ولكنني للنائبات حَمول
وإن رحيلاً واحداً حال بيننا وفي الموت من بعد الرحيل رحيلُ

بل نجد خطرات الحزن هذه في غزل الشباب. ففي القصيدة التي أولها:

أرَقٌ على أرَقٍ ومثليَ يَأرق وجوًى يزيد وعَبرةٌ تترقرقَ

يقول:

وعذلت أهل العشق حتى ذقتُه فعجبت كيف يموت من لا يعشق
وعذرتُهم وعرفتُ ذنبي أنني عيَّرتُهم فلقيتُ منه ما لقوا

ثم يتبع الغزل هذه الأبيات:

أبني أبينا نحن أهل منازل أبداً غرابُ البين فيها ينعَق
نبكي على الدنيا وما من معشر جمعتهم الدنيا فلم يتفرقوا
أين الأكاسرة الجبابرة الأولى كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا

إلى أن يقول:

ولقد بكيت على الشباب ولِمّتي مُسودَّة ولماء وجهي رونق
حذراً عليه قبل يوم فراقه حتى لكدتُ بماء جَفني أشرَق

ثم ينتقل من هذا البيت إلى المدح. فما الذي دسَّ هذه الأبيات التي فيها التفرق والفناء بين الغزل والمدح؟ حزنٌ خفيّ واكتئاب في نفس الشاعر يظهر بين الحين والحين، ويذكّر به كل شيء حتى الغزل.

٣

التعبير

بقي أن ننظر في تعبير الشاعر، ونعرف كيف يبين عن معانيه بألفاظه. وكيف تقع مفرداته ومركباته من مفردات الشعر البليغ ومركباته، ثم كيف يستقيم الأسلوب، وتُيسّر له طرائق البيان.

هذا موضوع واسع بعيد الجوانب، خفيّ الأعلام، وله في البلاغة مكانته. ولكني لا أحسب الذي يكتب عن شاعر كبير بسبيل من الإفاضة في هذا الموضوع واستقصاء نواحيه. فإن شاعراً لا يبلغ منزلة عالية بين شعراء أمته حتى يستوفى عُدّته للبيان، ويبلغ في اللغة ألفاظها وأساليبها، المنزلة التي تعلو على الجدل في علمه باللغة. ومسايرة قواعدها، والتزام الأساليب المتينة البليغة فيها.

وأبو الطيب شاعر كبير، لا يختلف في هذا اثنان، وإن اختلف الناس في درجات هذا الكِبر. فليس لزاماً على من يكتب عنه أن يخوض في بحث الألفاظ؛ ولكن عليه أن يعالج ما عرف به وذاع عنه من عيب أو مزية، غير المزايا التي يشترك فيها الشعراء العظام جميعاً.

لا أنكر أن لأبي الطيب عيوباً جزئية في أبيات له، لم يؤد إليها جهله باللغة ولا عجزه عن الارتقاء إلى الدرجات العليا فيها، ولا حطه إليها ضعف في الطبع، أو خور في البيان.

وقد أفاض فيها النقاد، وألممتُ بها آنفا. أخذوا عليه كلمة حوشية أو تكراراً ثقيلاً في الكلمات. وحفلت كتب البلاغة والنقد بأمثلة من مثل قوله في سيف الدولة:

* كريم الجرِشّي شريف النسب *

وقوله في وصف فرس:

* سبوح لها منها عليها شواهد *

وقوله:

أُحـــاد أم سُـــداس فـــي أُحـــاد لُيلتنـــا المنوطـــة بالتنـــادِي

وقوله:

لو لم تكن من ذا الورى اللذْ منك هو عقمـــتْ بمولـــد نـــسلها حـــواء

وهي جزئيات أدّى إليها الإدلال بعلمه بغرائب اللغة، أو ميله إلى الإغراب ليوجه الناس إليه ونحو هذين مما يعرض للإنسان في عنفوان شبابه.

وقد قدمت أن الرجل كان من أعلم أهل عصره باللغة، وأنه كان كوفياً يؤثر أحياناً طريقه الكوفيين في النحو على طريقة البصريين التي ألفها

المتأدبون. وتبقى بعد هذه المآخذ الجزئية. جمهرة شعر يتصرف قائله في اللغة مفردها ومركبها وأسلوبها تصرّف الخبير القدير، والناقد البصير، والفصيح الذي ملك الزمام، وانقاد له صعب الكلام.

***

ولأبي الطيب مزية أطلت النظر فيها وأنا أقرأ شعره، هي قدرته على الإبانة عن المعنى الواسع البعيد بألفاظ قليلة قريبة. ولقد مررتُ في شعره بأمثلة روائع، وكلمات بدائع يطيل القارئ عندها الإعجاب والتعجب ... وهذا نصها:

أراد أن يقول إن الليالي تكلفني سفراً متصلاً أقطع به مهامه واسعة صابراً على السير ومصاعبه مستأنفًا رحلة بعد رحلة! حتى تتعجب ناقتي وتحار أهذه سعة البيداء أم سعة عزمي وانفساح همّي؟ فانظر كيف وضع هذا المعنى الطويل في عشر كلمات:

شيَم الليالي أن تُشكك ناقتي صَدري بها أفضى أم البيداء

وأراد أن يقول في مدح أبي علي الأرواجي: إن أبا عليّ كالجبال عظمًا ووقاراً، وإن لي فيه رجاء عظيمًا كالجبال، وإنّ بيني وبينه جبالاً شامخة لا بد لي من قطعها. فانظر كيف أدّى هذا في ثماني كلمات:

بيني وبين أبي عليّ مثلُه شمُّ الجبال، ومثلُهن رجاء

وأراد أن يقول إن ممدوحه حسن، ولكنه في عيون أعدائه قبيح. وكذلك ضيفه قبيح في عيون إبله لأنها تعرف في قدوم الضيف نحرها، وهو في عيون أعدائه أقبح من ضيفه في عيون إبله. فأتى بهذه العبارة:

حسنٌ. في عيون أعدائه أقبحُ من ضيفه رأته السوام

وإن يكن في هذا البيت شيء من الغموض بما حُمل من معنى كثير في لفظ قليل.

وأراد أن يبين أنه يطرد عن عينه النوم في مسيره إلى رجل جواد يسري معروفه إلى الناس في ديارهم وهم نائمون غير متجشمين نصباً ولا ملحفين طلباً لهذا المعروف فقال:

سَرى النوم عني في سُراي إلى الذي صنائعُه تسري على كل نائم

وأراد أن يصف نساء بالجمال وسعة الأعين وحُسنها ويخبر بأنهن يبكين بكاءً شديداً يذهب بجمال أعينهن فأدى هذا المعنى في الشطر الثاني من هذا البيت:

تركتَ خدود الغانيات وفوقها دموع تذيب الحسن في الأعين النُّجل

وأراد أن يبين أن سيف الدولة هزَم الروم وقتلهم فمنهم من اختفى في المطامير والسراديب وتحت الأطلال كالخُلد الذي يختفي في الأرض، ومنهم من فرّ مسرعًا كالبازي. فما سلم هؤلاء ولا هؤلاء من القتل فقال:

فما تركن بها خُلداً له بصر تحت التراب ولا بازاً له قدم

وأراد أن يقول إنه لا مفر للإنسان من الشيب، فإن سبب الشيب الذي يكرهه الإنسان هو سبب الشباب الذي يبكي عليه. وهو مرور الزمان واستمرار الحياة. فقال:

مُشِبّ الذي يبكي الشباب مُشيبه فكيف توَقيه وبانيه هادمُه

وأراد أن يمدح سيف الدولة بأنه قتل في الحرب نفوسًا كثيرة لو حواها لخلَد، وأن حياته سرور لهذه الدنيا فهي تهنَّأ بخلده. فقال:

نهبتَ من الأعمار ما لو حويتَه لُهنتِ الدنيا بأنك خالد

وهذا الذي يسمَّى المدح الموجَّه؛ أي ذا الوجهين- كالثوب الذي له وجهان كلاهما حسن، كما قال الثعالبي في اليتيمة. وهو في شعره كثير كقوله:

عُمر العدوّ إذا لاقاه في رهَج أقلُّ من عمر ما يحوي إذا وَهبا

***

تُشرق أعراضهم وأوجههُم كأنها في نفوسهم شِيَم

***

إلى كم ترد الرسل عما أتَوا له كأنهم فيما وهبتَ ملام

***

كأن ألسنهم في النطق جُعلت على رماحهم في الطعن خرصان

فهذا فن يشهد بالقدرة على الإبانة، والبصر بإبراز المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة. وكم قائل يمد للمعنى أشطانًا من الألفاظ ثم يكون كما قيل: تجئك بحمأة وقليل ماء.

خاتمة

١

صحبنا أبا الطيب أحمد بن الحسين من نشأته إلى وفاته، على قدر ما عرفنا من أخباره، وأثرنا من سيرته.

وذكرنا طرفًا من أخلاقه ومذاهبه في الحياة وآرائه في الناس، وتكلمنا في علمه باللغة والأدب وغيرهما فعرفناه إمامًا من أئمة اللغة في القرن الرابع الهجري، وراوية من رواتها يأخذ عن العرب في حضره وسفره.

ثم أبنّا مكانته في الأدب، وما أحدثه في تاريخه، وذكرنا محاسنه في رأي القدماء ومساوئه.

وانتهى الكلام إلى بيان رأيي في شعره وخصائصه.

٢

ومن يقرأ هذه الفصول متأملاً، ويقرأ شعر أبي الطيب متمعنًا، يعرف رجلاً أبيًّا وشاعراً فحلاً، ويجد ثروة في الأدب ورثناها عن هذا الشاعر العبقريّ، ثروة من الشعر العزيز، والأدب المتعالي والحكمة القوية والخلق المنيع.

والشاعر الكبير بل الإنسان العظيم أيًّا كان، يُقدر بجملته لا بتفصيله، ويعف بهيئته لا بتفصيل حليته، كالوجه الجميل يروعك بطلعته قبل أن

يفصّل نظرك محاسنه. وإذا راعت الناظر صورة جميلة لم يُخل بروعتها أن يجد في تقاسيمها أو ألوانها وخطوطها مآخذ، أو يدرك في جزء منها موضعًا للتمني، وإن لقيت الناظر صورة فاترة لا روعة فيها ولا جمال، لم ينفعها بعدُ أن يتأمل فيرى إحكامًا في جزء منها، وإتقانًا في قَسمَة فيها وكذلك كبار الشعراء. فالشاعر الذي يكونُ أبا الطيب، هو شاعر عظيم لا محالة؛ وَدَعْ لفظًا مَعيبًا، وشطراً مردوداً، وبيتًا مرذولا - فما تزال الصورة رائعة جليلة، ولا يزال الشاعر هو أبا الطيب الذي جاء فملأ الدنيا وشغل الناس.

٣

وكذلك يقدر الشاعر بما أحدث في أدب أمته، وما أمدَّها من عقله وقلبه وبيانه وإحسانه. فإن رأيت الشاعر جاء فأثار الأفكار، وهاج النفوس، وترك شعرَه على الألسنة والأقلام، وفي بطون الكتب، يتمثل به الناس في الحين بعد الحين، وينشدونه طربين، ويحفظونه محتفين، ويتناشدونه متنافسين فهذا شاعر مطبوع مبتكر، صنع للناس شيئاً، ومهَّد لهم طريقًا، وصاغ لهم حلية، وأورثهم شعراً خالداً؛ ودع بعدُ محك الماحكين وتكلف المتكلفين، وتحامل الجاهلين، وبغى المتعصبين. ودع عيوبًا بيّنة أو خفية.

وحسب أبي الطيب أن أديبًا لا يسعه أن يعدَّ عشرة من أعلام الشعر العربي الذي امتد حينًا بين الصين وبحر الظلمات وامتد عمره خمسة عشرة قرناً- إلا كان أبو الطيب في هؤلاء العشرة. ولا أريد أن أقلّل العدد، أو أحكم له بالسبق والاستيلاء على الأمد.

٤

وبعد فأختم هذه الخاتمة بكلمة أثرت عن رجلين في الأدب عظيمين: ضياء الدين بن الأثير، وهو من هو علماً بالأدب وبصراً بنقده، والقاضي الفاضل وناهيك به. قال ابن الأثير: «وكنت سافرت إلى مصر سنة ست وتسعين وخمسمائة. ورأيت الناس مكبّين على شعر أبي الطيب المتنبي دون غيره. فسألت جماعة من أدبائها عن سبب ذلك. وقلت إن كان لأن أبا الطيب دخل مصر فقد دخلها قبله من هو مقدّم عليه. وهو أبو النواس الحسن بن هانئ فلم يذكروا لي في هذا شيئاً.

ثم إني فاوضت عبد الرحيم بن علي البيساني (القاضي الفاضل) رحمه الله في هذا فقال لي:

«إن أبا الطيب يتكلم عن خواطر الناس». ولقد صدق فيما قال.» أهـ.

***

يسر الله تعالى الفراغ من مراجعته، وإجالة القلم في صفحاته بتنقيح يسير، وتغيير قليل- عشية يوم الأربعاء الثلاثين من المحرم سنة أربع وسبعين وثلاثمائة وألف من الهجرة (التاسع والعشرين من أيلول سنة أربع وخمسين وتسعمائة وألف من الميلاد) في دار السفارة المصرية من مدينة كراچي عاصمة باكستان.

والحمد لله الملهم المنعم. وهو حسبنا ونعم الوكيل.

***

وكل الفراغ من تأليفه ضحى يوم الجمعة لتسع بقين من شهر
ربيع الثاني سنة خمس وخمسين وثلاثمائة وألف من الهجرة
(عاشر تموز سنة ست وثلاثين وتسعمائة وألف من الميلاد)
في مدينة السلام بغداد حرسها الله
وله الحمد في الأولى وفي الآخرة
والله أعلم
اهـ

إلى أبي الطيب

أبا الطيب انقاد الزمان على هدَى ... وصرتَ برغم الدهر للدهر سيدا
وأعطاك ما أمَّلتَه من إمارةٍ ... ولكن على عرش الزمان مُخلَّدا
مضتْ ألف عام أبلتِ الملك كلَّه ... وملكُك لا يزداد إلاّ تجدّدا
طلبتُ على الغبراء قبرك جاهداً ... فألفيتُه ذكراً عليك مشيَّدا [1]
تدوّى به الآفاق شعراً وحكمة ... وتجرى به الأزمان مجداً وسؤددا
فتربتُك الغبراء، إن شئت مرقداً ... وقبّتك الزرقاء، إن شئت معبدا
وتبّأت أن تحيا بشعرك خالداً ... فصدّقت الأجيالُ قولاً مسدّدا
وقامت لك الأعياد في كل بقعة ... فأنشِد على عرش الخلود مردِّدا:
«وما الدهر من رُواة قصائدي ... إذا قلتُ شعراً أصبح الدهر منشدا
وسار به مَن لا يسير مشمِّراً ... وغنّى به من لا يغنّي مغرِّدا» [2]

عبد الوهاب عزام

---

(١) تحريت المكان الذي قتل فيه الشاعر وقبره: ينظر الفصل السابع عشر.

(٢) نظمت في بغداد سنة ١٩٣٦م.